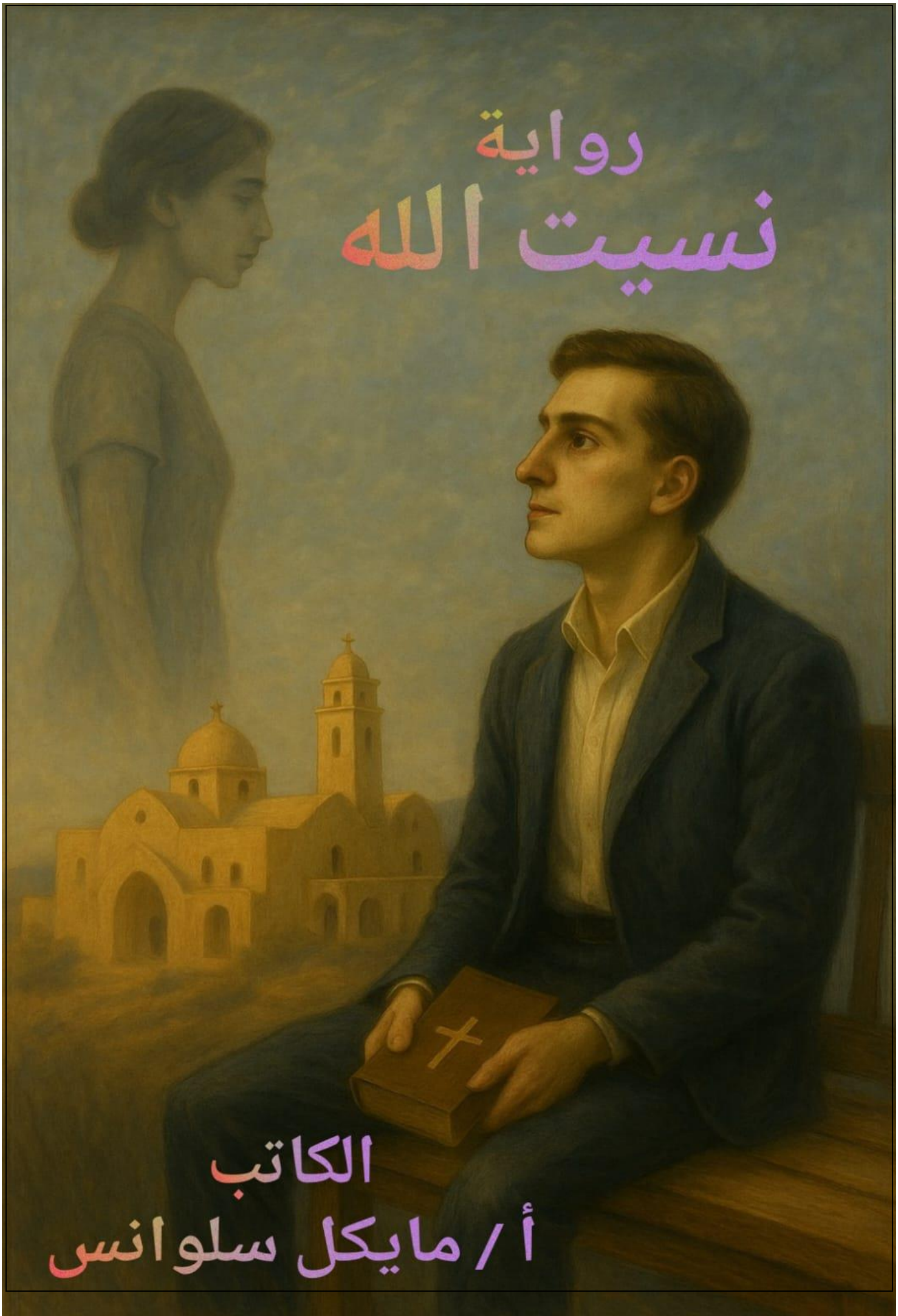
رواية
نسيت الله
الكاتب
أ/ مايكل سلوانس

بيانات الرواية

اسم الرواية:

نسيت الله

اسم الكاتب:

أ/ مايكل سلوانس

مصمم الغلاف:

أ/ ماجد يوسف

اثبات تاريخ :

٢٧ ــ ٧ ــ ٢٠٢٥م

اسم الرواية: نسيت الله

اسم الكاتب: مايكل يوسف سلوانس يوسف

الرقم القومي: ٢٨٨٠٩٠٨٠٣٠٠٢٧١

*** ملخص الأحداث:**

يوسف شاب مهندس ناجح جداً في عمله وخدمته الكنسية. وقع في حب نادين، الفتاة الهادئة التي دخلت حياته وملأت قلبه، وتزوجها.

تعلّق بها تعلقًا مفرطًا حتى أصبحت مركز اهتمامه العاطفي الوحيد، وبدأ ينسى الله، شيئًا فشيئًا، دون وعي.

تفاقم الصراع حين أُصيبت نادين بسرطان الغدد اللمفاوية. بدأ يوسف رحلة الألم معها، لكنه لم يدرك أنه لا يقاتل فقط من أجلها، بل من أجل إيمانه الذي بدأ يضعف، وتعلقه الذي تجاوز الحد. ومع تصاعد المرض، انهارت نادين... وماتت وهى تقاوم المرض بشجاعة حتى النفس الأخير.

عند رحيلها، أنكسر يوسف داخليًا،وضاع ما تبقّى له من رجاء، فتراجع عن كل ما كان فيه.

افتقده أب أعترافه القمص ميخائيل، وزاره في منزله، وأشار عليه بالذهاب إلى خلوة روحية.

بعد تفكير عميق، قرر يوسف الذهاب إلى دير السريان في وادي النطرون، حيث دخل في خلوة مع نفسه ومع الله. التقى هناك بأب راهب حكيم، وبدأ يحدثه من فكر القديس مارإسحق السرياني، فاكتشف ذاته من جديد، وتطهّر من صورته المشوشة عن الله والحياة والحب. وحدثت داخله توبة حقيقية وقيامة روحية.

هناك، في صمت الدير وعمق الوحدة، وجد يوسف الله من جديد، وذاق حلاوة نعمته. تأثر كثيرًا بفكر القديس مارإسحق واتخذ من تعاليمه قوانين ثابته في حياته.

عاد يوسف من خلوته مختلفًا: أكثر وعيًا، أكثر اتزانًا،وأقرب إلى الله. ذهب إلى كاهن كنيسته وأب اعترافه، وطلب أن يعود إلى خدمة الشباب التي كان قد تركها، لا بدافع الحنين إلى الماضي، بل بشغف حقيقي للخدمة، بعد أن عرف من هو الله، ومن هو الحب، ومن هو نفسه.

عاد ليخدم، لا لأنه قوي، بل لأنه أحب الرب إلهه من كل قلبه، ومن كل نفسه، ومن كل فكره، ومن كل قدرته...

فذاق حلاوة النعمة المُعطاة له.

مايكل يوسف سلوانس

" الفصل الأول "

حين يُزاحم الحب السماء

حين يصبح من نحبهم مركز الكون، ينزاح الله من القلب دون أن نشعر

بداية التعارف

كانت الشمس تميل إلى الغروب، والنادي يهدأ من صخب النهار، جلس يوسف كعادته في الكافيتريا المطلة على المسطح الأخضر، يبحث عن لحظة هدوء بعد يوم مرهق. شارد الذهن، يتأمل الفراغ بلا هدف .....

حتى وقعت عيناه على امرأة تجلس قريبة منه، ترتدي ملابس بسيطة، معها طفل صغير يركض بحماس.

وفجأة، تعثر الطفل وسقط أرضاً، نهض يوسف بسرعة، حمله بلطف، نفض الغبار عن بنطاله، واطمأن عليه.

يوسف مبتسماً: الحمد لله أنت بخير، لا يوجد جروح أو كدمات، بسيطة يا بطل.

هنا جاءت المرأة متساءلة: هل وقع ؟

يوسف بابتسامة خفيفة: نعم، ولكنه سليم والحمد لله على كل شيء.

انحنت على الطفل، تفقدت ركبته، ثم نظرت إلى يوسف وقالت: شكراً لك، آسفة على تعبك .

يوسف: ولا يهمك

أشارت المرأة للطفل أن يمشي بجوارها، وأكملت طريقها ....

بعد عدة أيام كان يوسف جالساً على نفس المنضدة الجانبية في الكافيتريا، وأمامه كوب عصير مانجو، لم يشرب منه إلا القليل، وفجأة ....!

لمح نفس المرأة ولكنها هذه المرة معها طفل مختلف عن الذى رآه منذ بضعة أيام..!

قطب جبينه قليلاً وتحدث في نفسه قائلاً: هذا الطفل غير الذى رأيته من قبل، ما الذي يحدث هنا بالضبط مع هذه المرأة؟ كل مرة تأتى بطفل آخر ...!

أخذ يفكر قليلاً في هذا الموضوع المحير، ثم قرر أخيراً أن يتحدث إلى الجرسون.

يوسف يسأله بهدوء: هل تعرف هذه السيدة ؟

الجرسون نظر باتجاهها : نعم إنها الأستاذة نادين، أحياناً تأتى إلى هنا، ولكنها تأتى في الصباح، إلا إنها منذ أيام بسيطة بدأت تأتى في هذا التوقيت .

يوسف: ولكنى في كل مرة أري معها طفل آخر، وهذا الموقف أثار فضولى وتفكيري.

الجرسون: ملاحظة جيدة منك يا بشمهندس يوسف، السبب في هذا أنها تعمل أخصائية تخاطب في مركز بالقرب منا، ولذا فإنها تأتى بالأطفال من وقت لأخر هنا، حتى يتم معالجتهم في جو جميل ومكان هادىء.

يوسف: فعلا إذا عرف السبب بطل العجب

ابتسم الجرسون وقال: استمتع بوقتك، وأنا هنا في خدمتك.

مضي الجرسون، بينما يوسف أدار عينيه نحوها مرة أخري، حيث كانت تشير للطفل بهدوء على صفحة كتاب مصور، تنتظر نطقه، ثم تبتسم له حين يجاوب صواب.

بدأ يوسف يشرب عصير المانجو، ولكن طعمه كان مختلفاً هذه المرة، وكأن قلبه بدأ يتذوق شيئاً آخر، لا علاقة له بالمانجو. خصوصاً عندما عرف إنها غير مرتبطة بأحد.

بعد قليل بدأ الطفل الذي معها يزهق ثم قام وجري فجأة بعيداً عنها. لاحظه يوسف، وقبلما يصل إلى باب النادي قاطع طريقه بابتسامه هادئة قائلاً له: إلى أين أنت ذاهب يا بطل ؟

وقف الطفل باندهاش وتردد ثم قرر أن يرجع لنادين مرة أخري....

قامت نادين مسرعة نحوه وقالت ليوسف بصوت مسموع: أشكرك جداً، لولا أنك لحقت به لكان من الممكن أن أفقده، خصوصاً أن هذا الشارع مزدحماً بالسيارات.

يوسف بابتسامة: من الواضح أنه ولد ذكي، ولكنه يمل بسرعة من كل شيء حوله.

نادين: فعلا هو كذلك، يمل سريعاً، وأي شيء يشتته بسهولة، وهذا يعتبر الجزء الكبير من المشكلة .

يوسف متظاهراً بعدم معرفته: لقد لاحظتك أكثر من مرة تجلسين مع أطفال كثيرين، هل تعملى معهم ؟

هزت نادين رأسها بإيجاب، ثم قالت: نعم فأنا أخصائية تخاطب .

يوسف بصدق: شغلك إنسانى جداً، من الواضح إنك تحبين عملك كثيراً.

نظرت له نادين لحظة وقالت: إنى حاول أن أكون مفيدة بقدر ما أستطيع.

يوسف: جيد أن يفيد الإنسان جميع من حوله، فلا يستحق الحياة من عاش لنفسه فقط، أحب أعرف حضرتك بنفسى، أنا يوسف أعمل مهندس معماري، أعشق البنايات والتصميمات المبتكرة، ولكن تسمحى لى أن أعرف أسمك ؟

نادين بتعجب: اسمي نادين، عذراً تسمح لى بالمغادرة الآن .

يوسف بابتسامة: بكل سرور، إلى اللقاء.

أشارت نادين للطفل ففهم أن ميعاد الرحيل قد حان، ومضيا كلاهما في طريقهما، بينما يوسف ظل جالساً يفكر فيها، حيث بدأت ملامحها تنطبع في ذاكرته، كأنها لقطة لا تمحى. لم تكن الفتاة جميلة بالمعنى الكلاسيكي، لكن فيها شيء يرغمك على التوقف أمامها، كانت نظراتها تجمع بين وعى داخلى عميق، وبراءة لم تفسدها المدينة بعد.

مرت الأيام ورآها جالسة وحيدة على مقعد حجري في أحد أركان النادي، لم يكن معها طفلاً هذه المرة كعادتها، ربما جاءت للإستجمام فقط، أستغل يوسف هذه الفرصة السانحة أمامه وتقدم نحوها وقال بصوت هاديء: مساء الخير، أستاذة نادين.

نظرت إليه نادين بابتسامة خفيفة على وجهها وقالت: مساء النور.

يوسف واقفاً على بعد قليل منها: في الحقيقة لم أرد أن أطيل عليك في الحوار، ولكنى أرغب بأن أصارحك بشيئاً مهماً من دون مقدمات ....

نظرت إليه نادين باستغراب: تفضل قل، فأنا أسمعك جيداً

يوسف: لقد كنت أتابعك من فترة ليست ببعيدة، وصراحة أننى معجب بك جداً، بهدوئك، وطريقتك، وشغلك، كل شيء فيك يقول إنك إنسانة مختلفة .

نظرت إليه نادين بتعجب وخجل، ولم تجد ما تقوله له، فأكمل حواره بهدوء أنا لا أريد رقم هاتفك، ولا جئت لأتكلم معك كثيراً، إنما صارحتك فقط برغبتى بالإرتباط بك، إذ لم يكن لديك أي مانع وترحبين بى، فأتمنى أن أزور أهلك وأتقدم لك رسمياً.

نادين بنبرة رزينة: هل أنت متأكد من كلامك هذا ؟

يوسف يجاوب بمنتهى الصدق: طبعاً متأكد جداً

نادين: أسمع يا يوسف أنا لا أحب العلاقات العابرة، فإذا حدث نصيب بيننا فينبغى أن نكون واضحين مع بعضنا منذ البداية.

يوسف: وأنا أيضاً مثلك، ولأجل هذا جئت وتحدثت معك بمنتهى الصدق والجدية.

سكتت نادين لحظة ثم قالت: حسناً، أعطنى فرصة حتى أحدث والدتى بشأنك، وإذا كان هناك رد فحتما سيصلك.

يوسف بابتسامة خفيفة: وأنا في انتظاركِ يا نادين، ثم ودّعها وانصرف بهدوء.

زيارة يوسف لمنزلها

بعد حوالى أسبوع، أخبرته نادين بالموافقة المبدئية عليه، وأن والدتها ترغب في لقائه والتعرف عليه.

فرح يوسف كثيراً بهذا الخبر السار، وذهب إلى بيتها لمقابلتها.

رن جرس الباب، ففتحت له سيدة في أواخر الخمسينات ووجهها طيب، وعيناها فاحصتان.

نظرت إليه برفق وقالت: اتفضل يا ابني

يوسف (بابتسامة فرحة): يزيد فضلك يا أمي

السيدة: البيت نور يا حبيبي

يوسف: تعيشي منور بأصحابه وأهله.

دخل وجلس في الريسبشن وهو متوتر قليلاً، إذ كان قلبه يدق بسرعة، لكن ملامحه لم تظهر سوي الثبات والانفعال المكتوم. بعد قليل، جاءت نادين بوجهها البشوش ومعها مشروب العصير، ورحبت به قائلة: نورت بيتنا المتواضع يا يوسف.

يوسف (بابتسامة صافية): بنورك يا نادين، تصميم بيتكم بسيط لكنه مريح جداً. كيف حالك اليوم ؟

نادين: الحمد الله أنا بخير، وأنت ؟

يوسف: أنا على ما يرام طالما أنت بخير.

تبادلا الابتسامات، وقدمت الأم العصير له، ثم قالت: نادين بنتى قالت لى إنك مهندس معماري، يعنى شغلك في التصميمات والبناء، أليس كذلك؟

يوسف (بهزة رأس وابتسامة): نعم بالطبع،أعمل في مكتب تصميمات معمارية، وأشرف على مشاريع كثيرة، سواء سكنية أو تجارية.

نادين (بهدوء): عمله يحتوي على الكثير من الفن يا أمي. أتذكر مرة أراني تصميماً رائعاً لعمارة كان يعمل عليها. كانت التفاصيل مبهرة جداً، ولديه ذوق رفيع بالفعل.

يوسف (بخجل): أشكرك على كلماتك الطيبة.

الأم (بابتسامة): يبدو أنك تحب عملك كثيراً.

يوسف: صحيح. رغم ضغطه، لكنه ممتع. تشعر أنك تصنع شيئاً جديداً من العدم، ترسمه في خيالك، تضعه على الورق، ثم يتحول إلى بناء حقيقي يسكن فيه الناس.

الأم (بحنان): أعجب كثيراً بالعمل الذى يجعل الإنسان يشعر بقيمته.

يوسف : شكراً لذوقك. في الحقيقة، عندما قابلت نادين أول مرة في النادي، أثرت في كثيراً رغم أنها لم تلحظ ذلك. إن كان عملى يمنحنى الإحساس بقيمتى، فإن نادين تمنحنى الشعور بوجودي. أنا أبنى المباني وهى تبني النفوس.

الأم (مبتسمة): نادين دائماً تقول: "ابن الإنسان أولاً، قبل البنيان".

نادين (بخجل): أحاول فقط أن أساعد الأطفال قدر استطاعتى.

الأم (بفخر): منذ صغرها كانت تتعلق بالأطفال الذين يمرون بصعوبات، وتحزن عليهم أكثر مما تحزن على نفسها.

نظر إليها يوسف بتقدير وقال: هذا واضح تماماً من طريقتها في التعامل مع الأطفال.

ثم دار الحديث عن عائلته التي فقدها في حادث سيارة مأساوي، وعن والد نادين الذي توفى قبل عامين، وكم هم يفتقدونه لأنه كان سندهم الوحيد .

ساد الصمت للحظات، لكن كلمات يوسف كانت كفيلة بأن تُطمئن قلب الأم تجاهه، فقد بدا عليها الإحترام والصدق والبساطة.

وهذه البساطة بالتحديد، كانت سبباً في ارتياح نادين له. ليس له فقط، بل نحو المستقبل كله، ذلك المستقبل الذى بدأ يُكتب فى هذه اللحظة المفصلية من حياتها.

بعد مضي قرابة ساعتين، هم يوسف بالانصراف، فقالت له الأم: نحن أناس بسطاء يا يوسف، لكن نادين غالية عليَّ جدًّا، وهي ابنة الرب قبل كل شيء.

يوسف (بثبات واحترام): وأنا جئت لأجل هذا السبب، كنت أصلى طالباً من الله أن يبارك خطواتى، ويرشدنى إلى طريق حياتى، ويوفقنى بفتاة من عنده.

الأم (مبتسمة): آمين. أسأل الله أن يوفقكما ويبارك حياتكما.

خرج يوسف من الزيارة وقلبه أكثر هدوءًا، فقد رأى ترحيباً وصدقاً لم يتوقعه.

وبعد عدة أيام قليلة، تمت خطبتهما بنعمة الرب، الذى بارك ارتباطهما، وجعل محبتهما تقوم على صخرة الإيمان. فالله الذى بدأ معهما، هو أمين وقادر أن يكمل.

بعد الخطوبة:

بعد غروب الشمس في إحدى الكافيتريات الهادئة، التقى يوسف بنادين.

اقترب منها وسألها بتردد:هل أعجبك هذا المكان ؟

نادين (بابتسامة هادئة): نعم. فيه هدوء غريب، كنت بحاجة إليه منذ زمن بعيد.

يوسف (متعجباً): لقد جئت إلى هذا المكان عدة مرات من قبل، ومع ذلك لم أشعر بهذا الهدوء من قبل.

نظرت إليه نظرة سريعة، ثم تأملت الأشجار من حولهما وقالت: المكان جميل حقاً، لكن الجمال الحقيقي لا يغيرنا وحده. نحن فقط القادرون على تغيير أنفسنا، حين نستمع إلى الآخرين أولاً.

يوسف: معك حق، نادين.

انتهى اللقاء، لكن كلماتها لم تنته، ظلت تتردد في ذهنه طوال الليل، دون أن يدرك، أصبحت نادين مركز قلبه، وكلامها يتسلل إلى أعماقه مثل نسمة حنين.

أحب حديثها، وتمنى لو يسمعه طوال الوقت. ومن دون وعى، بدأ يجد في صوتها عزاء بديلاً عن صلاته، وظن أن حبها قد يمنحه سلاماً يفوق النعمة الإلهية ذاتها.

بدأ يؤخر صلواته اليومية في الأجبية، ثم نسيها تماماً.

تراجعت قراءاته في الكتاب المقدس، وقل حضوره في القداس الإلهى.

لم يعد يسمع صوت الله في داخله، بل يكفيه صوتها.

أراد فقط أن يتحدث معها، أن يسمعها وهى تحكي له عن والدتها، عن بيتهم القديم في شبرا.

نادين: هل أنا وحدي من يتحدث؟

يوسف (مبتهجاً): أحب أن أسمعك دائماً، صوتك مريح لى للغاية.

نادين: هل هو الغرام ... أم ولع الحب؟

يوسف (بصدق): لا أدري، لكننى أعلم أن صوتك يهدئنى، يشعرني بالسكينة.

نادين:أشكرك على هذه المجاملة اللطيفة.

يوسف: لم أقصدها كمجاملة، بل كحقيقة يا حبيبتى.

نادين (ضاحكة بخجل): لم أعتقد أن المهندسين يمكن أن يكونوا بهذا القدر من الرومانسية. ألا يفترض أن تفكيركم عملى؟ كيف تجمع بين العقل والعاطفة.

يوسف: صدقيني، ما أقوله نابع من القلب، لا من العقل.

نادين: أعلم ذلك يا حبيبي.

لم تكن نادين مجرد خطيبته، بل أصبحت عالماً خاصاً له. كان يشعر أنها تعويض إلهى عن وحدته، عن يتمه العاطفى.

رآها سكينة ودفئاً وعمقاً.

قال لها ذات مرة: كنت أعيش بلا قلب. حتى جئت أنت، ومنحتيني قلباً جديداً.

وفى أشهر قليلة، أحبها بكل جوارحه، أكثر من أي إنسان عرفه من قبل. أقنع نفسه أن الله هو من جمعهما، وأنه يجب أن يتزوج عن حب. لكنه لم ينتبه. أن الله نفسه بدأ يختفى من العلاقة.

صار يري أن كل لحظة يقضيها بعيداً عنها، هي خسارة. أما هي، ورغم حذرها الطبيعى، فقد انجرفت رواء مشاعره. ومنذ ذلك الحين، تحولت صلاته من حوار مع الله. إلى حديث يومي معها.

شعر يوسف بالحب، وربما بالعشق لأول مرة في حياته. أحس بالدفء، بالانتماء، بشيء يشبه الأسرة والاهتمام. قال لنفسه: "هذا ما كنت أفتقده، صوت أنثوي يقول لى: خذ بالك من نفسك.

لم يكن يعلم أن حبه لها، رغم صفائه، بدأ يزاحم مكان الله في قلبه. نسي كلمات المسيح: من أحب أباً أو أماً أكثر منى فلا يستحقني".(متى ١٠: ٣٧).

فالحب حين يتجاوز مكانه، قد يصبح عبادة. وإلهنا إله غيور، يطالبنا بأن نحبه من كل القلب، وكل النفس، وكل الفكر، وكل القدرة . هذه هي الوصية الأولى. (مرقس ١٢: ٣٠).

يوسف مع أب اعترافه أبونا يعقوب:

في قلبه، كان صوتٌ ضعيفٌ يهمس: عد إلى حيث بدأت، عد إلى الله. ولم يكن الصوت من الخارج، بل من أعماق روحه التي بدأت تشتاق لمن خلقها.

جلس يوسف في الكنيسة وهو مُطأطِئ الرأس، بينما ابتسم له الأب الكاهن وكلمه برفق

أبونا يعقوب: كيف حالك يا يوسف؟ وكيف هي أخبار حياتك الروحية؟

لقد لاحظت غيابك عن الاجتماع منذ فترة. هل كل شيء بخير يا بنى ؟

يوسف (يرفع عينيه بتردد، ثم يبتسم بشيء من الخجل): بخير، يا أبي ...

قدسك تعلم أننى خُطبت، ولم يعد وقتي ملكاً لى كما كان.

أبونا (بنبرة هادئة لكنها حازمة):أعلم، يا يوسف .... لكن ما يُقلقنى هو تغيرك السريع. أين ذهبت حرارة محبتك لله ؟ أين محبتك الأولى له؟ يقول القديس مار إسحق السرياني: " إن كل حب خارج الله هو محبة تنقص القلب ولا تُكمِّله".

(يتحرك يوسف في مقعده، ويعلو صوته قليلاً، متوتراً)

يوسف: أترانى أخطأت حين أحببت؟

هل تقصد، يا أبي، أننى يجب أن أنهى خطبتى؟

(يصمت الأب لحظة، يضع يده برفق على كتف يوسف، ثم يقول بنبرة أبوية)

أبونا: لا يا بنى، لم أقل هذا. لكن لا تسمح لأى محبة، مهما كانت جميلة، أن تفصلك عن الله. كما قال معلمنا بولس الرسول: " فإنى متيقن أنه لا موت ولا حياة، ولا ملائكة ولا رؤساء، ولا قوات، ولا أمور حاضرة ولا مستقبلة، ولا علو ولا عمق، ولا خليقة أخرى، تقدر أن تفصلنا عن محبة الله " (رومية ٨ : ٣٨- ٣٩).

يوسف (يتنهد، ويتكلم كمن يصارع نفسه): لكنها كانت صلاة .... واستجيبت.إن نادين هدية منه. شعرت أن الله هو من ربط بيني وبينها، فكيف تكون عطية الله سبباً في ابتعادي عنه؟

أبونا: عطايا الله لا تبعدنا عنه، لكن أحياناً نحن من نبدل ترتيب الأولويات. الله لا يطلب منك أن تُفارقها، بل أن تضعه أولاً في قلبك. الله يريد أن جميع الناس يخلصون، وإلى معرفة الحق يقبلون (تيموثاوس الأولى : ٢ -٤).المسألة ببساطة: لا تشرك محبة أخري بمحبة الله. لا تحب أحداً أكثر من الله.

يوسف (يخفض رأسه بتأثر، وكأن دمعة توشك أن تسقط من عينه): صلِّ من أجلي، يا أبى.

أبونا (بابتسامة مشجعة): الرب معك يا بنى. لينير قلبك قبل طريقك .

نهض يوسف ببطء، وسلم على أبونا وودعه بإيماءة، ثم خرج...

لكنه ظل يحمل سؤالاً في قلبه لم يجد إجابة له. هل يكون الحب أحيانًا امتحاناً خفياً لمحبة الله ؟

زواج يوسف من نادين:

لم تكن الخطوبة طويلة، لكن كل يوم فيها قرّب بين قلبيهما أكثر...

تزوّجا بعد أشهر قليلة جمعت بين القلبين. كان منزلهما صغيرًا، لكنه امتلأ بالحب والدِّفء.

كل مساء كانا يتحدثان معًا طويلًا. صوتها الهادئ جعله يشعر وكأن السماء قد نزلت لتسكن قلبه.

لقد أحبها حبًا عميقًا، أكبر مما تخيّل. حبًّا كاد أن يُنسيه كل شيء... حتى الله!

أصبحت هي محور حياته، وعالمه الذى يدور حوله.

كان يقول في نفسه: نادين هي كل حياتي، كيف لى أن أعيش بدونها ؟

لم يدرك أن صلاته تتضاءل، وحياته الروحية تذبل شيئاً فشيئاً. كان يظن أن الحب الكبير الذي يحمله لها هو عطية من الله.

كان يُطمئن قلبه قائلًا: الله يعلم أننى مشغول بمحبتها، وأننى أسعى لإسعادها. أنا أُطبق الوصية التي تقول: أيها الرجال أحبوا نساءكم، كما أحب المسيح أيضًا الكنيسة "(أفسس ٥ : ٢٥). ومن يحب أمرأته يحب نفسه. (أفسس٥ : ٢٨).

لكن الحقيقة التي لم يُدركها أن المحبة التي تُبعد الإنسان عن الله لا يمكن أن تكون صادقة. فهى محبة غير مثمرة، ولا تُرضي الله.

كانا يتشاركان الحديث، وأحيانًا يشاهدان فيلمًا تلفزيونيًّا، لكن الكتاب المقدس ظل مركونًا على الرف، وأصبحت الأجبية ذكرى جميلة من الماضي. فرحة الزواج أنستهما طَعم العِشرة مع الله.

كان يقول لها دومًا: أنتِ كل حياتي، وكل لحظة بدونك لا طَعم لها.

ولم يُدرك أن هذه العبارة لم تكن مجرّد كلامٍ، بل مرآة صادقة عكست ما في داخل قلبه. لقد أصبحت بالفعل كل حياته.

واحتلّت في قلبه مكانًا فاق محبة الله، حتى دون أن يشعر.

كانت نادين له كنزًا لا يُقدّر بثمن، واعتقد أنه لن يجد مثلها أبدًا في هذا العالم الفسيح.

" الفصل الثاني "

حين صمتت السماء

صمت السماء لا يعني غياب الله... بل أحيانًا يختبر القلب في صمت الإجابة. فحين ينكسر القلب ولا تتغيّر الظروف، لا يكون الله غائبًا... بل يكون مشغولًا بتغييرنا نحن.

تعب نادين:

استيقظت نادين من نومها على ضيقٍ في التنفّس، وجسدها غارق في العرق، رغم برودة الجو. ظنّت في البداية أنها دفئت نفسها أكثر من اللازم، فذهبت إلى الحمّام لتغتسل، ظنًّا منها أن الأمر عابر.

لكن في الليلة التالية تكرّر ما حدث. خفّفت الغطاء معتقدة أن ثقله هو السبب، رغم أن الشتاء كان قارسًا هذا العام.

بعد أسبوع، بدأت تشعر بإرهاقٍ عامٍ يُثقل جسدها أرجعت السبب إلى ضغط العمل ومسؤوليات البيت، وحاولت ألا تُقلق أحدًا.

ذات مساء، جلس يوسف بجوارها، يتأمل وجهها المتعب.

يوسف: كيف حالكِ اليوم يا نادين؟

نادين (بابتسامة مرهقة): الحمد لله، أنا بخير يا حبيبي.

يوسف (مترددًا): لكنكِ لا تبدين كذلك... تبدين مُجهدة أكثر من المعتاد.

نادين: هذا طبيعي، ضغط العمل والمنزل ليس بالأمر الهيّن. فقط أحتاج إلى بعض الراحة.

يوسف (محاولاً التلميح بلطف): حتى البجامة أصبحت واسعة عليكِ ...

نادين (تحاول التهرب): ربما لأنني غسلتها للمرة الأولى. لا تقلق، قد تكون خامتها رديئة.

تأملها يوسف بصمت، ثم قال بصوتٍ خافت:

يوسف: نادين ... أنا غير مقتنع. هناك شيء لا يبدو طبيعيًا.

نادين (نظرت إليه باستغراب): يوسف، لماذا كل هذا القلق ؟

يوسف: وهل يُلام المحب إن قلق؟

نادين (تتنهد): أخبرتك أنني بخير ... لا داعي للانزعاج.

يوسف (بحزم): بل هناك داعٍ. سنذهب إلى الطبيب، أرجوكِ لا ترفضي.

نادين (بتردد): وأي طبيبٍ سنقصد؟ وماذا أقول له؟

يوسف: نبدأ بطبيب باطني. فحوصات عامة على الأقل. إن كان حقًا تعبًا عابرًا، نطمئن.

ذهبا إلى الطبيب، وبعد الفحص شخّص حالتها بأنها " أنيميا بسيطة "، وبدأت في تناول مكملات الحديد وبعض الفيتامينات. لكن الأيام مرّت، والتعب لم يتراجع. بل ظل كما هو، وربما أشد.

وهنا، تسلّلت المخاوف إلى قلب يوسف. نظراته لنادين لم تعد تحمل فقط حبًّا... بل قلقًا عميقًا.

وكان قلبه يهمس له: الأمر ليس بسيطًا....

فقرر أخيرًا: لا بد من تغيير الطبيب.

مشهد الدكتور مع نادين وزوجها يوسف:

في الغد ذهبوا إلى طبيبٍ آخر، فطلب منهما إجراء بعض تحاليل الدم الأولية، مثل صورة دم كاملة، وبعض المؤشرات الأخرى.

وفى اليوم التالى، ظهرت نتائج التحاليل، فاستلمها يوسف، وذهب مع زوجته إلى الطبيب المعالج في عيادته الخاصة. قرأ الطبيب النتائج بهدوء وتركيز، ثم ساد الصمت لبضع ثوانٍ، مرت عليهما كأنها دهرٌ كامل.

قال أخيرًا: المؤشرات عمومًا تبدو جيدة، ولكن هناك ارتفاع مقلق في إنزيم (LDH).

يوسف (بتوتر): وما معني هذا يا دكتور ؟

الطبيب: معناه أن هناك نشاطاً غير طبيعى داخل الجسم. ولهذا السبب، لابد من إجراء أشعة مقطعية، لنعرف ما إذا كانت الغدد اللمفاوية بحجم طبيعى أم لا ؟

نادين (بقلق): يعني هل أنا مريضة بمرض خطير؟

الطبيب (بهدوء):لا يمكننا الجزم بذلك الآن. قد يكون مجرد التهاب، وقد يكون أمرًا آخر أكبر من ذلك.

يوسف (بصوت خافت متردّد): يعني فيه إحتمال يكون ورم ؟

الطبيب (بحرص): احتمال، نعم. لكن ليس بالضرورة أن يكون ورمًا خبيثًا. الأشعة المقطعية ستساعدنا كثيرًا في تحديد خطواتنا القادمة، سواء كانت متابعة فقط، أو الحاجة إلى أخذ عينة.

خرجا من العيادة، وتوجّها إلى مركز الأشعة. أجرت نادين الأشعة المقطعية، ولم يستغرق الأمر أكثر من نصف ساعة، لكنها شعرت أن الزمن توقف بالكامل.

أخبرهم الطبيب أن نتيجة الأشعة ستظهر غدًا.

في طريق العودة، التزم كلاهما الصمت. كانت نادين غارقة في التفكير، ويوسف يقود السيارة دون أن يرى شيئًا أمامه، سوى فكرةٍ واحدة تسيطر عليه: نادين في خطر.

رجعا إلى المنزل، وقضيا ليلتهما في انتظارٍ صعبٍ، كان أقسى من أي ألم جسدي.

في اليوم التالي، استلم يوسف الأشعة والتقرير، وذهبا معًا إلى الطبيب المعالج، بدا الجو داخل العيادة أكثر هدوءًا من المعتاد. جلسا في مواجهة الطبيب، الذي بدأ يتفحّص الصور والتقارير بعناية، وعيناه تتحركان بين السطور....ثم قال أخيرًا: للأسف الأشعة أظهرت تضخماً في بعض الغدد اللمفاوية. حجمها أكبر من الطبيعي، وفى أكثر من مكان.

نادين (بقلق): يعني ... هل هناك شيء ؟

الطبيب (بحذر): لا يمكننا الحُكم بدقة من خلال الأشعة والتحاليل فقط، نحتاج إلى أخذ عيّنة نسيجية من الغدد، لفحصها تحت الميكروسكوب.

يوسف، وقد بدأ القلق يتسلّل إلى نبرته: وهل هذا مؤلم ؟

الطبيب (بهدوء): لا، الإجراء بسيط جدًا، ويتم تحت تخدير موضعي. لكن الأهم أن نعرف نوع الخلايا بدقة، حتى نتمكّن من اتخاذ القرار العلاجي الصحيح فوراً، بإذن الله.

أومأت نادين برأسها، لا تدري هل تخاف من الكلام الذي سمعته، أم من الكلام الذي لم تسمعه بعد.

تم أخذ العينة في اليوم نفسه، وأخبرهما الطبيب أن النتيجة ستظهر خلال عشرة أيام.

قال الطبيب (بنبرة حاسمة ومطمئنة) : وحينها فقط يمكننا أن نتحدث عن كل شيء بالتفصيل .

عشرة أيام انتظار:

مر اليوم الأول ببطء، ثم الثاني، فالثالث... ، كل الأيام كانت تتشابه، إلا أن القلق كان يزداد عمقًا. كانت نادين تجلس في غرفتها، تحدَق في السقف، تحاول منع دموعها من السقوط .

حاول يوسف أن يشغلها بشتى الطرق، فيلم، كتاب، نزهة قصيرة... لكن عقلها كان هناك، في أنبوبة العيّنة، في التقرير الذى لم يُكتب بعد.

نادين: أشعر أن الأيام لا تمر، وأنها أطول من العمر نفسه... فقلق الإنتظار لا يضاهيه أي قلق آخر.

يوسف: هانت يا حبيبتى، كلها يومين وتظهر النتيجة بإذن الله.

نادين: تعرف يا يوسف أنا لست خائفة من المرض... أنا فقط خائفة أن أكون عبئًا عليك. خائفة من التعب، من التغيّرات من الظروف... من كل شيء.

يوسف: لا تخافى من شيء وأنا معك، وسأظل دائمًا بجوارك... أنت حياتي، وكل ما لي .

صمتت نادين، ثم وضعت رأسها على كتفه.

ربما لم تنتصر على خوفها، لكنها على الأقل وجدت من يحمل عنها نصفه.

مشهد تشخيص المرض:

مرت الأيام في بطء شديد على كليهما، حتى جاء اليوم العاشر فتوجها إلى الطبيب. لم ينتظرا طويلاً، دقائق فقط .

الطبيب (بهدوء): كيف حالك يا نادين؟

نادين: الحمد لله ... أنا بخير.

يوسف: طمئنا، من فضلك يا دكتور.

الطبيب: لقد وصلت نتيجة العيّنة اليوم من المعمل.

أبتلعت نادين ريقها، وأغمضت عينيها للحظة. أما يوسف، فشعر أن قلبه يخفق كأنه جرى عشرة كيلومترات متواصلة.

أكمل الطبيب (بهدوء): للأسف، تحليل العيّنة أكد وجود ورم لمفاوى خبيث. هذا النوع من الأورام يؤثر بشكل ملحوظ على المناعة... لكنه أيضًا من الأنواع التي يمكن معالجتها، وهناك أمل كبير في الشفاء.

جاء الخبر على نادين كصاعقة كهربائية. أما يوسف، فاستقبله كطلقة نارية من عيارٍ ثقيل. تمنّى أن يصرخ، أن يستيقظ من هذا الكابوس... لكن الواقع كان واضحًا.

نظر إلى زوجته، فوجدها هادئة بشكل غريب. لم تكن كذلك حقًا، لكنها حاولت إخفاء خوفها داخليًا، كي لا تقلقه أكثر.

يوسف (بصوت مختنق): هل يوجد أمل يا دكتور؟

الطبيب (بثقة): بالطبع. الأمل في الله كبير جدًا، والمهم أن نبدأ العلاج في أسرع وقت ممكن.

خرجا من العيادة، وقد اتفقا على بدء جلسات العلاج. وفي المنزل، بدا على نادين الإرهاق، فستأذنت من يوسف كي ترتاح.

دخلت غرفتها، وجلست على سريرها، ثم رفعت عينيها للسماء وقالت: يارب أنت القادر أن تشفيني. أنت وحدك من تعيد لي صحتى.أنت الذي خلقت الإنسان وتعرف عنه كل شيء.أنت الذى شفيت الأبرص والأعمى ونازفة الدم ...

أنت الذى قلت : ٱدْعُنِي فِي يَوْمِ الضِّيقِ، أُنْقِذْكَ فَتُمَجِّدَنِي.(مزمور٥٠: ١٥).

يارب، قادر أن تلمسنى وتُحنّ عليّ وتشفيني. آمين.

أما يوسف، فقد عاد للصلاة... لكن بدموع حارقة، غزيرة، تنهمر منه كحمم بركانية.

يوسف (يصلي): يارب... هذه زوجتى، هذه نادين حبيبتى. أرجوك، أشفها لي، وأنا أعدك، سأصلي كل يوم، وسأصوم وسأكرز باسمك... فقط أعدها لي. أعد لي ابتسامتها، صحتها، حياتها.

كانت صلاته حارّة ... لكنها لم تكن تسليماً، بل صفقة مع الله.

لقد كانت يديه مرفوعتين إلى السماء، لكن قلبه معلق بالأرض.

صلاته لم تكن شكرًا... بل كانت توسلاً عنيفًا، تحركه رغبته في التملك لا الإيمان.

كان حبه الأرضي أقوي من إيمانه، وقلقه أعمق من ثقته بالله.

بدأ الألم يتسرّب إلى روحه... يتردد ما بين الأمل في الشفاء، والخوف من الفقد.

بينما نادين، رغم أوجاعها، كانت أقرب إلى السلام. ذلك السلام العجيب، الذى لا يصدر عن البشر... سلام التسليم الكامل لإرادة الله، فهو الرب... يفعل ما يحلو في عينيه.

تحديد نوع العلاج :

جلس الطبيب في عيادته، يتصفّح التقارير الأخيرة بهدوء، ثم رفع عينيه نحو يوسف ونادين، وقال بنبرة جادة، لكنها مطمئنة:

الطبيب: بما إن التشخيص أصبح واضحًا الآن، فقد حان وقت البدء في الخطة العلاجية. الأساس سيكون العلاج الكيميائى، وهو عبارة عن أدوية قوية تعمل على مهاجمة الخلايا السرطانية في الجسم كله.

ثم نظر إلى نادين، وابتسم ابتسامة دافئة وقال: ستشعرين ببعض التعب والإرهاق في البداية... وهذا طبيعى جدًا. لكني أعدكِ أننا سنكون معك في كل خطوة، فلا داعي للقلق.

صمتت نادين، وهزّت رأسها بخفة. كانت الكلمات تطمئنها من الخارج، لكن خوفها ظل يقرع بابها من الداخل.

يوسف: هل يوجد نوع آخر من العلاج ، يا دكتور ؟

الطبيب: في بعض الحالات، نُضيف العلاج الإشعاعي، وهوعبارة عن أشعة مركزة تُسلّط على مواضع الورم لتقليص حجمه. وهناك أيضًا العلاج المناعى، وهو نوع حديث من العلاجات، يقوي جهاز المناعة حتى يصبح قادرًا على التعرف على الخلايا السرطانية ومهاجمتها.

أمسك يوسف بيد نادين، وضغط عليها برفق، ثم قال وهو ينظر في عينيها: أنا معك وسأظل بجوارك إلى الأبد. لا تخافى من شيء.

فقدان الأمل وتدهور الحالة الصحية:

مرّت ثلاثة أسابيع على بدء العلاج الكيميائي في مستشفى الأورام.

وفي صباحٍ هادئ، جلست نادين أمام المرآة تمشط شعرها كعادتها، لكن شيئًا ما لم يكن كالمعتاد. راحت خصلات رفيعة تنسحب من رأسها، واحدة تلو الأخرى، كأنها تتفكك بصمت بين يديها. نظرت إلى الأرض فرأت خيوطًا متناثرة من شعرها، فأغمضت عينيها تحبس دمعة كانت على وشك السقوط. مدّت يدها تلمّ ما تساقط، وكأنها تحاول الإمساك بجزء من ذاتها قبل أن يضيع.

في تلك اللحظة، دخل يوسف بخطاه الهادئة، فرأى ما جرى. اقترب منها، ثم جلس بجوارها، واحتضنها بلطف.

يوسف (بصوتٍ حنون): لا داعي للخوف أو البكاء، يا نادين. لقد تحدّثت مع الطبيب، وأكد لي أن هذه مرحلة مؤقتة. كل شيء سيعود كما كان، فقط اطمئني... كل الأمور ستتحسن بإذن الله.

نادين (بتنهيدة حزينة): لا أشعر أنني أفقد شعري فقط، بل شيئًا أعمق... كأنني أفقد قوتي شيئًا فشيئًا، وكل ما فيّ يضعف.

يوسف (يمسك يدها): أنتِ لا تضعفين، بل تقاومين. جسمك يُقاتل، وكل تساقط هو علامة على أن العلاج يعمل. أنتِ أقوى مما تظنين.

تبادلا نظراتٍ صامتة، ملؤها الحب والإيمان، وسط سكون الغرفة الذي حمل شيئًا من الأمل.

بعد لحظات، دخل الطبيب يحمل بيده ملف التحاليل الجديدة، ونظر إليهما بملامح جادة.

الطبيب: مساء الخير... للأسف، نتائج التحاليل تشير إلى أن الجسم لا يستجيب للعلاج، وهذا غير متوقّع. الورم من النوع الذي استجبنا له في حالات عديدة، لكن الاستجابة في هذه الحالة ضعيفة جدًا.

يوسف (ينهض مذهولًا): كيف ذلك؟! لقد كانت تحارب بكل ما فيها. كنت واثقًا أنها ستجتاز هذه المرحلة...

الطبيب: أفهم مشاعرك جيدًا، وسنستمر في العلاج طبعًا، لكننا بحاجة إلى صبر وثبات أكبر.

تجمّدت ملامح يوسف، وانحبست الكلمات في صدره. نظر إلى نادين، فوجدها صامتة، تستمع بهدوء، كأنها عرفت الحقيقة قبل أن تُقال.

خرج الطبيب، وترك خلفه صمتًا ثقيلًا. تركهما يواجهان مصيرهما المحتوم.

نادين (بابتسامة رقيقة): لا تخف عليّ، يا يوسف... كل شيء سيكون بخير.

يوسف (ينظر إليها بألم): أي خير؟!

أين الخير في المرض؟ في التعب؟ في هذا الألم الذي لا ينتهي؟ لا أحتمل رؤيتك هكذا.

نادين (بهدوء): الخير لا يُقاس بما نراه الآن، أحيانًا يختبئ بين الألم والصبر. ربما يتأخر، لكنه لا يغيب أبدًا.

لم يستطع يوسف الرد. اقترب منها، وقبّل يدها، وهمس: سامحيني... أشعر بالعجز، لا أملك إلا أن أحبك وأتمنى لو أستطيع أن أتحمّل عنك كل هذا. وضعت نادين يدها على قلبه، وقالت: وجودك يكفيني، يا يوسف... طالما قلبك معي، لن أخاف شيئًا.
غادر يوسف الغرفة متظاهرًا بالتماسك، لكن خطواته كانت ثقيلة، كأنها تحمل ما لا يُحتمل. أما قلبه... فقد بقي هناك، حيث تقيم نادين، بين الألم والرجاء.

تمهيد الرحيل:

بدأت حالة نادين الصحية تتدهور بسرعة، وكأن جسدها لم يعد قادرًا على مواصلة الحرب. لم تعد الأدوية تُجدي، ولا الوجوه المطمئنة تقدر أن تُخفي الحقيقة. كان واضحًا أن الأطباء قد فقدوا السيطرة، وأن النهاية تقترب بخطى هادئة لكنها مؤكدة.
في إحدى المرات، دخل الطبيب إلى الغرفة، يحمل بيده ملف التحاليل، وتحدث بصوتٍ منخفض:

الطبيب: السرطان، للأسف، انتشر في أماكن متعدّدة من جسدها. لم يعد هناك علاج فعّال يمكن تقديمه في هذه المرحلة. كل ما نستطيع فعله الآن هو تقديم الرعاية التلطيفية لتخفيف الألم. المرض بلغ مرحلة متقدّمة... ولا أمل في الشفاء.

تجمّد يوسف مكانه. شعر وكأن الحياة قد انسحبت من جسده، والهواء ضاق في صدره، والواقع صار أبشع من كل كوابيسه. تقلّص قلبه، واهتزت الأرض تحت قدميه.

غادر الطبيب الغرفة بصمت، وترك خلفه فراغًا ثقيلاً.

نظر يوسف إلى نادين، وكانت تنظر إليه بهدوء، كأنها سبقته إلى التصديق.

نادين (بصوت هادئ، يسكّن العاصفة): أعلم يا يوسف... الحياة قاسية أحيانًا، أكثر مما نتصوّر أو نحتمل. لكنّ الله لا يتركنا، هو معنا حتى في أقسي اللحظات.

يوسف: أعرف أن هناك معارك لا تُربح، لكننا نخوضها بشرف. لكنّني لم أتخيل يومًا أن تكون المعركة هذه المرة... مع حياتك أنتِ.

نادين: اهدأ من فضلك. أنا لا أخشى الموت، لم أخشه يومًا. لكنّ قلبي يخاف عليك. الوجع الذي يسكنك أغلى من حياتي كلها.

يوسف (صوته يرتجف): لماذا يسمح الله بهذه التجربة؟ هل يظنني أيوب؟ هو يعرف جيدًا أنني لست كذلك...

نادين (بثبات روحى): ماذا تقول؟!

الله لا نُحاسبه، ولا نُعاتبه. هو كليّ الحكمة... يعرف ماذا يصنع بالإنسان.

يوسف: لكنه يعرف أيضًا أنني لم أعد أحتمل. أنا بشر، وطاقتي محدودة.

نادين: الله ليس بظالم يا يوسف. هو لا يجرّبنا فوق ما نطيق... بل بقدر احتمالنا، وبقدر رحمته.(١كورنثوس ١٠: ١٣).

أنهت كلماتها، ثم أغمضت عينيها ببطء. لم تنطق بعدها بكلمة.

شعر يوسف أن شيئًا ما تغيّر فجأة في ملامحها وصوتها. كانت أنفاسها تتباطأ تدريجيًا، وعيناها شاردتان نحو اللا شيء.

اقترب منها، ناداها بلطف... لكنها لم تُجب. هزّ يدها برفق، فرأى أطرافها باردة بشكلٍ مقلق، وبقيت ساكنة، كأنها لا تُبصر ولا تشعر. وجهها بدا شاحبًا، ساكنًا، كأن الحياة تسلّلت منه في صمت. ارتعب، وركض مناديًا على الأطباء. جاؤوا على الفور، وبدؤوا بفحصها، محاولين تحفيزها على الاستجابة، لكن ظلّ سكونها كما هو. لا حركة ولا وعي. وبعد دقائق من التقييم، قال الطبيب بهدوء، ونظره معلّق بها: لقد دخلت في غيبوبة ولا يعلم أحد متى ستفيق منها، أو إن كانت ستفيق أصلًا سوى الله.

اقترب يوسف منها، نظر إلى وجهها الساكن، الذي بدا نقيًّا، كأنها دخلت في سلام لا يُشبه هذا العالم. جلس إلى جوارها، وأمسك يدها الباردة المرتخية، ثم همس بصوت مرتجف، يكاد ينكسر: لا تتركيني الآن. لم أتعلم بعد كيف أعيش من دونك...

موت نادين :

في فجر اليوم التالي، دوّى في الغرفة صوت جهاز المراقبة، متحوّلًا من النبض المنتظم إلى صفير طويل متواصل. هرع الطاقم الطبي إلى الداخل، وبدأوا بمحاولات الإنعاش القلبي السريع، فيما كان يوسف متجمّدًا في مكانه لا يصدّق عينيه. كانت اللحظة أشبه بانهيار كل شيء، فوضى تسكنها صرخة داخلية مكتومة لا يسمعها سواه. دقائق مرت كدهر، قبل أن ينسحب الأطباء بهدوء، ووجه الطبيب يقول ما لم تُنطقه الشفاه.

توقّف قلب نادين نتيجة هبوط حاد في الدورة الدموية، كمضاعفات متأخرة للسرطان.

ماتت نادين... لكن حب يوسف لها لم يمت.

كان من المفترض أن يدرك يوسف أن من يُحب إنسانًا أكثر من الله، يخسر الاثنين معًا.
قال السيد المسيح: مَن أحب أبًا أو أمًّا أكثر مني فلا يستحقني، ومَن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني.(متى١٠: ٣٧). فمن يُقدّم على الله محبة أخرى، لا يستحق محبته.

حين تلقّى يوسف الخبر، هوى على ركبتيه كمن أصابته صاعقة. انسابت دموعه بلا توقف، وصرخ كأن صوته يخرج من أعماق قلبه المنهار: لماذا تركتِني يا نادين؟

كنت أحتاجك بشدة... أكثر مما كنتِ تحتاجين إليّ. كيف أعيش من دونك؟ من أنا بعدك؟

غمر الفراغ قلبه، وغلف الظلام روحه. لم تكن هناك صلوات، فقط أنين لا يُسمع، ودموع لا تجف، وكلمات محبوسة في الحلق. لم تكن حالة حزن عادية، بل انهيار كامل. فقدَ ما هو أكثر من نصفه... هي لم تكن فقط شريكة عمره، بل كانت عمره كلّه، إن جاز التعبير. اضطر يوسف إلى مواجهة الحقيقة القاسية وحده: الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لم يستطع حبّه أن يمنعها.

في لحظة صدق قاسية، قال لله: يا رب، كنت أصلّي لأجل أن تعيش، لا لأجل أن أموت حيًّا بفقدها. لقد أخذتَ منّي ما كنت أستند عليه. هل تركت لي شيئًا لم تأخذه بعد؟!

كان يؤمن أن الصلاة تغيّر كل شيء، وأن الإيمان وحده كافٍ لتحريك السماء.

لكنها لم تتحرك. لم يسمع شيئًا. السماء صمتت... صمتًا موجعًا لا يُفسَّر.

يوما بعد يوم، انكمش يوسف على نفسه. انسحب من العالم، ودفن صوته في صمت لا يُحتمل. كان قلبه يتقطّع.

وفي ليلة باردة، قال بهدوء: أنا لا أفهمك يا رب. لكن إن كنتَ هناك، أرشدني إلى الطريق...

أنا تائه، وأخاف من هذه الوحدة التي لا يُحتمل سكونها. لماذا لم تستجب لصلاتي؟

هل لأنني خاطئ؟ لكنك جئت لأجل الخطاة.(لوقا ٥ : ٣٢).

هل لأنني بارّ؟ فهل الأبرار لا يستحقّون عونك؟ أنا لم أطلب معجزة... فقط طلبت أن تعيش نادين، لا أكثر.

ثم أضاف، وهو يحبس دمعه: قلتُ لك سابقًا إنني لست أيوب. ولا أقدر أن أقول: الرب أعطى، الرب أخذ، ليكن اسم الرب مباركاً.(أيوب١ : ٢١).

لم أستطع قولها يومًا...

مرت الأيام ثقيلة، كأن الزمن نفسه دخل في حداد. الصباح كالمساء، والأيام بلا معنى، بعدما انقطع النور الذي كان يضيئها. الحزن لم يكن مرحلة، بل ظلّ. صاحب لا يُفارق.

حتى الإنجيل صار كتابًا يخاف أن يفتحه. يداه المرتجفتان تقتربان منه أحيانًا، ثم تتراجعان كأنها خائفة من الجواب. لكنه في لحظة نادرة، فتحه دون تفكير، فوقع بصره على الآية: قريب هو الرب من المنكسري القلوب، ويخلّص المنسحقين بالروح.(مزمور ٣٤: ١٨).

قرأها بصمت. ثم أغمض عينيه. لم تكن صلاة، ولا حتى صرخة... بل أنين داخلي بلا صوت. قال لله: إن كنتَ قريبًا من المنكسَرين، فلماذا أشعر أنك بعيد؟ هل تسمع من لم يعد قادرًا على الصلاة؟ هل تقترب ممن فقدوا القدرة على المجيء إليك؟ هل يمكن أن أتعلم الحياة مع الغياب؟ من أكون بعد نادين؟ وهل ما تبقّى منّي يصلح أن يُبنى عليه شيء؟

لم تصله إجابة. ولم يحدث شيء. لكنه لم يعُد ينتظر. بدأ فقط يتقبّل، وكأن الألم صار مرآة يرى فيها وجهه لأول مرة بلا أقنعة.

وفي اليوم التالي، فتح درجًا قديمًا، يبحث فيه عن شيء... فوجد ورقة بخط نادين، كأنها كتبتها له ليوم كهذا: عندما تُرهقك الأسئلة ولا تجد جوابًا... فقط اهدأ. فالسكون لا يقتلك... بل يعلّمك. تنهد بعمق، كأن الورقة نزلت من السماء. لم تكن كلماتها فقط ما هدّأه، بل توقيتها، كأن الله لم يكلّم قلبه إلا بها. نظر من النافذة، لا ينتظر معجزة، فقط هدنة من الألم.

زيارة أبونا روفائيل راعى الكنيسة لأم نادين:

أبونا روفائيل(بصوت هادئ يحمل الحنو): كيف حالكِ الآن، يا أم نادين؟

ليُعزّكِ الرب ويملأ قلبك سلامًا.

أم نادين (تتنفس ببطء وكأنها تبحث عن الكلمات): نشكر الله، يا أبونا... لم أكن أظن أن الموت بهذا الثقل...

إنه لا يأخذ أحباءنا فقط، بل يتركنا خلفهم فارغين، كأن شيئًا انكسر في أعماقنا ولا يُجبر.

أبونا روفائيل(ينظر إليها بعينٍ دامعة): القديس مار إسحق قال: الموت هو باب العبور للذين أرهقهم هذا الدهر. من رآه بعين الله، اشتاق إليه، ومن رآه بعين الجسد، اختنق منه.

أم نادين (وهى تحاول أن تحبس دموعها): أنا... مختنقة حقًّا.كيف تعيش أمٌ بعدما تُدفن ابنتها؟

أنا لا أفهم. لا أستوعب. كأن الدنيا توقفت.

أبونا روفائيل (بصوت يحمل عمق الإيمان): وما عدم الفهم، إلا أول الطريق نحو الفهم. الرب يسوع قال لبطرس: أنت لست تعلم الآن ما أنا أصنع، ولكنك ستفهم فيما بعد. (يوحنا ١٣: ٧).

لكننا كثيرًا ما نطالب الله بأن يشرح،أن يبرر، أن يُسرع... نطلب منه استجابة فورية، ونُصرّ على أن تتحقق أمنياتنا دون انتظار أو تمحيص. ولا نسأل إن كانت هذه الرغبات لصالحنا، بل فقط نريدها أن تتم... الآن.

(تصمت الأم لوهلة، تنظر إلى الأرض ثم تهمس): كنت أنظر إلى نادين وهي نائمة في سرير المستشفى...

كانت هادئة بشكل غريب، كأنها رأت ما لم أره. وجهها لم يكن حزينًا... بل ساكنًا، كأنها مرت إلى عالم آخر.

أبونا روفائيل (بابتسامة ممزوجة بالدمع): ربما رأت وجه الله. ومن يراه، لا يعود راغبًا في البقاء هنا. القديس مار إسحق قال: من ذاق الله، احتقر كل عطايا الأرض. ومن رأى النور الحقيقي، اشتاق إلى مفارقة الظلمة.

(يسود صمت عميق، الأم تحدّق في لا شيء، لكنها تشعر أن شيئًا تغيّر).

لم تطرح مزيدًا من الأسئلة، ولم تجد إجابة كاملة، لكن قلبها بدأ يهدأ...

فقد فهمت أن ليست كل الإجابات تُقال، وبعضها لا يُعطى، بل يُمنَح بالتسليم.

كما قال الرسول بولس: يا لعمق غنى الله وحكمته وعلمه! ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء.(رومية١١ :٣٣). ومَن عرف فكر الرب؟ أو مَن صار له مشيرًا ؟ (رومية١١: ٣٤).

ثم همست في قلبها: ما لا أفهمه أضعه بين يديه. وما لم أحتمله يسنده هو برحمته.

زيارة أبونا يعقوب أب أعتراف يوسف له:

حين سمع يوسف طَرق الباب، لم يفكّر في أن يفتحه. تجاهل الصوت في البداية، كما فعل مع كل من حاول الوصول إليه. لكن شيئًا ما في الإلحاح الهادئ لذلك الطرق، جعله يقوم ويفتح الباب...

وجد الأب يعقوب واقفًا. فابتسم الأب وقال له: مساء الخير يا ابني يوسف. ألعلك لا ترحب بي، وتقول لي: تفضل؟

قال يوسف بإحراج: تفضل يا أبي.

دخل الأب يعقوب وجلس على الأريكة في الصالون. نظر حوله في سكينة، ثم التفت إلى يوسف الجالس في صمت، وقد انطفأت عيناه من كثرة الدموع، وقال له بلطف: لا أملك كثيرًا من الكلمات التي يمكن أن تواسيك يا يوسف. ففي حضرة الحزن العميق، تصبح الكلمات عبئًا. لم أحاول أن أشرح لك مشيئة الله تجاه ما حدث، فأفضل ما يُقال في هذه اللحظة... هو السكوت. لقد جئت لا لأقول شيئًا، بل لأكون معك فقط.

أغمض يوسف عينيه، وكأن الكلام يلمس شيئًا عميقًا بداخله، ربما مما قرأه لنادين. ثم قال بصوت مرتجف: تعبت يا أبونا... ليس فقط من الحزن عليها، ولا من

الصمت الذي تلا رحيلها، بل لأنني كنت أظن أن الصلاة تغيّر مشيئة الله، لكنها لم تغيّر شيئًا.

لقد صليت كثيرًا، وكانت تصرخ من شدة الألم، وكنت أصرخ من شدة الحزن... ولم يُستجَب لنا. فقدت كل حياتي... فقدت أعز الناس وأقربهم إلى قلبي.

ابتسم الأب في هدوء، وقال: هذا طبيعي جدًا يا يوسف. أغلبنا يبدأ بالصلاة لأنه يريد أن يُشفى الجسد، أو أن تتحقق له رغبة معينة. لكن هل سألنا أنفسنا: هل إرادتنا متوافقة مع مشيئة الله؟

هل يجب على الله أن يستجيب لنا كما نريد؟

ما تمر به الآن ليس ضعفًا في الإيمان، بل هو لحظة انكسار حقيقية.قريب هو الرب من منكسري القلوب. (مزمور ٣٤ : ١٨).

شعر يوسف بدهشة، وتذكّر أنه قرأ هذه الآية من قبل في الإنجيل. أحس أن الله يرسلها له الآن من خلال الأب يعقوب.

ثم قال: كنت أصلّي كثيرًا، لكنني لم أسمع صوت الله أبدًا. لم أكن أفهم حكمته فيما حدث.

الأب يعقوب بلطف: لكي تسمع صوت الله، عليك أولًا أن تسمع نفسك. وهذا لا يحدث في الزحام ولا وسط الضجيج. هل فكّرت يومًا أن تعتزل قليلًا؟

لا هربًا من الواقع، بل لتسمح للهدوء أن يدخل إلى قلبك؟

نظر يوسف إليه بشرود وسأله: تقصد يا أبي أن أذهب إلى خلوة في الدير؟

الأب يعقوب: نعم، هذا ما أقصده.

يوسف: وماذا أفعل هناك؟

أجابه الأب: لا تفعل شيئًا. فقط امكث هناك، واترك الله يعمل فيك من حيث لا تدري. فالقلوب الجريحة لا تُرمم في زحام المدينة... اذهب، واختلِ هناك.

ظل يوسف صامتًا لدقيقة، ثم قال: هل ذهبت إلى هناك من قبل؟

ابتسم الأب وقال: ذهبت حين لم أكن أفهم شيئًا، وعدت وقد فهمت بعض الأشياء. لكنني أصبحت أكثر تصالحًا مع نفسي ومع ضعفي.

ثم نهض وقال وهو يضع يده على كتف يوسف: خذ وقتك يا ابني، واعلم أن السكون هو صوت الله في صورته الأولى.

ودّعه الأب يعقوب وخرج. أما يوسف، فظل جالسًا في مكانه لا يتحرك. عيناه ثابتتان، لكن في داخله كان هناك شيء يتغيّر. لم يعُد يبحث عن إجابات لأسئلته، بل عن موضعٍ يرتاح فيه من كثرة التساؤلات.

" الفصل الثالث "

عودة القلب للفخاري

الله لا يُشكِّل القلب في الراحة، بل في الكسر. هناك تعود الطينة إلى يدي الفخاري

الذهاب للدير

بعد أربعين يوماً من رحيل نادين، لم يعُد أحد يواسيه، ولا عادت الصلاة تعزيه. صار العزاء ثقيلًا، والرجاء مفقودًا.

فهرب إلى الصحراء البعيدة، حيث اتجه لدير العذراء السريان العامر في وادي النطرون. كانت الشمس توشك على المغيب حين وقف يوسف أمام باب الدير.

الطريق الترابي الطويل كان ساكنًا تمامًا. يحمل حقيبة صغيرة، لكن العبء الحقيقي كان في صدره. خطواته بطيئة، وساقاه كأنهما تسحبان جسده بصعوبة، أما قلبه فكان أثقل ما فيه.

قابله الراهب المسؤول عن بيت الخلوة، وجهه هادئ، جاد، يحمل حكمة السنوات، وعيناه فاحصتان، لكن مريحتان، تُشعّان بحنان خفي.

الراهب (بهدوء): ما اسمك؟

يوسف: اسمي يوسف. جئت لأقضي خلوة لعدة أيام.

الراهب: هل معك خطاب الخلوة؟

أخرج يوسف الورقة التي حصل عليها من أب اعترافه، القمص يعقوب، وسلّمها للراهب. قرأها الأخير بهدوء، ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، وقال: تفضل. أهلًا وسهلًا. ليكن الرب معك في هذه الأيام، ويمنحك راحة وسلامًا.

يوسف: شكرًا يا أبانا.

الراهب: هنا يا يوسف، ستجد الصمت والخلوة. ورحلة أعمق من الكلمات.

أعطاه الراهب غرفة بسيطة في بيت الخلوة . كانت تحتوي على سرير خشبي، مروحة سقف قديمة، كتاب مقدس على الطاولة، أيقونة صغيرة للسيدة العذراء، وأخرى للقديس مار إسحق السرياني، كُتب أسفلها: ادخل إلى ذاتك، تجد هناك الطريق إلى الله.

جلس يوسف على السرير، وحدّق في السقف. كل شيء حوله ساكن. أغمض عينيه، دون أن يُصلّي أو يطلب شيئًا. كل ما شعر به كان صوتًا لا يُسمع... صوت الصمت.

كان قلب يوسف يحمل وجعًا قديمًا، وحزنًا عميقًا، وصوتًا داخليًا يصرخ في صمت: لماذا؟ لماذا ماتت؟ ولماذا صمتَّ أنت أيضًا، يا رب؟

نزلت دموعه، وبكى. فالدموع ليست دائمًا ضعفًا. كما قال القديس مار إسحق: الدمعة الخارجة من وجع الحب، أنقى من صلاة طويلة بلا قلب.

مرّ اليوم الأول بهدوء ثقيل، وكأن الزمن توقّف، ليتركه وحيدًا مع حزنه. ولم يكن يعلم أن الخلوة ليست مجرّد مكان... بل مرآة تكشف ما لا يريد الإنسان أن يراه.

الفراغ لا يملأ بالهروب

بعد أسبوع من العزلة التامة، لم يتغير شيء. لم يشعر بأي اقتراب من الله، ولا حتى من نفسه. حتى الصلاة، لم تعد فكرة واردة...

كان كل يوم يشبه الذي قبله: صمت ثقيل، قلب مُثقل، وخطوات تائهة تدور في ذات الفراغ. لم يعد في داخله سوى الانتظار... انتظار أن ينتهي هذا التيه، لكن لا شيء ينتهي وحده.

يتجوّل في الدير دون هدف، وكأن قدميه تسيران بجسده بينما روحه ما زالت عالقة عند لحظة الرحيل.

لم يكن هدوء الدير يريحه، بل يعمّق الفراغ في داخله أكثر. يمشي لا لينسى، بل ليهرب من السؤال الوحيد الذي يُطارده: لماذا أخذتها، يارب؟

لم يستطع أن يتصالح مع ما حدث. لم يقدر أن يغفر لله. كأن شيئًا في داخله قد انطفأ، أو ربما لم يكن يومًا مشتعلًا. وكأنه أشبه بحجرٍ مُلقى على الطريق...

يدور حول السور في نفس الدوائر. يتوقف قليلًا أمام شجرة، أو يقف أمام باب الكنيسة، ثم يعود إلى حيث بدأ.

لم يكن يحاول أن يُصلي، ولا حتى أراد أن يفهم. كان فقط ينتظر أن ينتهي هذا الشعور الثقيل...

وفي أحد الأيام، بينما كان يوسف يتوه في خطواته المعتادة، شعر بالتعب، فجلس على مقعد حجري، مطأطئ الرأس، ناظرًا إلى الأرض. كانت الليلة مظلمة، بلا نجوم، الهواء باردٌ قليلًا.

مرّ عليه الراهب المسؤول عن بيت الخلوة. لم يكن اللقاء عابرًا هذه المرة، بل بداية لحوارٍ لم يُفتح من قبل. كأن الصمت الطويل الذي سكن بينهما بدأ يتحوّل إلى كلمات.

الراهب (بهدوء): كيف حالك يا يوسف؟

يوسف (بصوت خافت): بخير... نشكر الله.

الراهب: لاحظت أنك منذ عدة أيام تتجوّل في الدير، ثم تعود إلى غرفتك في صمت. لماذا لا تُصلّي معنا في الكنيسة؟ سامحني يا بني، لكن ما الهدف من الخلوة إذن؟

يوسف (بصدق مضطرب): صدّقني، حتى أنا لا أعلم لماذا جئت. هل أتيت لأهرب؟ أم لأستريح؟ أم لأجد إجابة لما حدث؟

لا أستطيع أن أُحدد...

الراهب (بلطف): الخلوة ليست للهروب من العالم أو من ألمٍ يُرهقك. الخلوة فرصة لتسمع ما لم تكن قادرًا على سماعه وسط الضجيج. بعض الناس يأتون إلى الدير ليستريحوا من الحياة، وآخرون يأتون ليسمعوا صوتهم الداخلي للمرة الأولى. خذ وقتك يا يوسف، ولتكن هذه الأيام بداية جديدة لك.

حين يتكلم الانكسار

في الليلة التالية، جلس يوسف في صمتٍ طويل، وكأن حديث الأمس قد حرّك ما كان مجمّدًا داخله. لم يبلغ بعد مرحلة السلام، لكنّه بدأ يشعر بشيء مختلف. كأن في داخله صوتًا لا يريد أن يصرخ فقط، بل أن يفهم.

يوسف (بصوت منكسر): لم أعد قادرًا على فعل أي شيء. حتى كلمة " يارب " صارت ثقيلة على لساني. لقد فقدت كل شيء. لم يعد لي مكان.

الراهب (بهدوء): حين يفقد الإنسان كل شيء، يبدأ الله في بنائه من جديد.

يوسف (بألم): كنت أصلّي من أعماق قلبي كي تُشفى نادين زوجتي. صلّيت برجاء صادق. لكن الله لم يستجب. وماتت.

الراهب: ربما استجاب الله أكثر مما كنت تتوقّع. لكنه بدلًا من أن يعطيك ما كنت تريده، أعطاك ما تحتاجه.

القديس مار إسحق يقول: الصلاة ليست وعدًا بالاستجابة، بل تهيئة لاحتمال ما لا نقدر عليه. أحيانًا، الصلاة لا تغيّر ما يحدث، لكنها تغيّر ما يحدث في داخلنا.

سكت يوسف وتأمل الكلمة، كأنها طرقت قلبه طرقًا خفيفًا لكنه عميق.

الراهب (بنبرة أهدأ): الصلاة ليست صفقة، ليست اتفاقًا بيننا وبين الله. الصلاة أحيانًا تكون تجهيزًا، حتى يحتمل القلب ما هو آتٍ.

يوسف (بصوت خافت): لكنه كان صعبًا جدًا عليّ.

الراهب: ولم يُطلب منك أن يكون سهلاً. لكنك حين صليت، لم تكن وحدك. كانت نعمة الله تسندك دون أن تشعر.

القديس مار إسحق يقول أيضًا: ليست الصلاة وعدًا بأن تُستجاب طلبتك، بل نار تُنقّي القلب، وتجعله هيكلًا لقبول ما لم يطلبه.

نظر يوسف إلى الراهب ولم يفهم كل شيء، لكنه شعر بأن قلبه بدأ يتحرّك.

الراهب: كنت تطلب حياة نادين، لكن الله كان يعمل في حياتك أنت. ما تحطّم داخلك لم يكن فقط الفقد، بل ذاك التعلّق الذي حجَب الله عنك. هناك من يعود إلى الله بدموع، وهناك من يعود بفقد، وهناك من يُوقظه الله بالانهيار.

انفجر يوسف في البكاء، وربت الراهب على كتفه بلطف، وقال: ليست هذه نهاية، يا يوسف الفقد باب، لكن لا بد أن تدخل منه وأنت تترك كل شيء خلفك، حتى نادين.

في اليوم التالي، جلس يوسف في ذات المكان. وكأن الحزن قد أصبح له مقعد دائم إلى جواره. لم تجف دموعه بعد، لكنها لم تكن كالسابق. كان في قلبه شوق جديد لا لعزاءٍ سطحي، بل لفهمٍ أعمق لصوتٍ يتمسّك به، لمعنى يُبرّر هذا الكسر.

مرّ الراهب بهدوئه المعتاد، وجلس إلى جواره دون استئذان. كأن بينهما لغة أصبحت لا تحتاج إلى كلمات كثيرة.

الراهب (بصوت منخفض): كيف حالك الآن يا يوسف؟

يوسف: ما زلت حزينًا في كل لحظة، أشعر بالألم في قلبي، في جسدي، في روحي. ولا يهدأ.

الراهب: أنت لا تحزن فقط على نادين، بل على نفسك. لأنك أدركت أنك كنت تسير وحدك، بعيدًا عن الله. والرب استخدم هذا الوجع ليعيدك إليه.

يوسف: أتقصد أن هذا الحزن من الله؟

الراهب: القديس مار إسحق يقول: النعمة لا تُمنح إلا في التجربة. لا توجد نعمة حقيقية بلا كسر، بلا وجع، بلا اعتراف بأننا لا نصلح لشيء بدون الله.

يوسف: لكنني كنت أُصلّي ليلًا ونهارًا، أليس هذا إيمانًا؟

الراهب: الإيمان ليس أن نقول لله: افعل ما أريد. بل أن نقول يا رب، إن لم يكن هذا يُرضيك، فخذه منّي وأنا راضٍ.

الإيمان لا يغيّر الواقع دائمًا، لكنه يُغيّر القلب الذي سيعيش هذا الواقع. مار إسحق يقول: من لا يحتمل أن يخسر ما يحب لا يعرف الله بعد.

ثم نظر إليه نظرة عميقة، وأضاف: حتى المسيح في بستان جثسيماني صلى وقال: يا أبتاه، إن شئت أن تُجيز عني هذه الكأس. ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك. (لوقا ٢٢: ٤٢). لم يهرب من الألم، بل قبله. صلى لا لينجو، بل ليكون كاملًا في المحبة.

يوسف (بصوت مخنوق): لم أكن أريد أن أتركها. كنت أظن أن الله لا بد أن يسمعني لأنه يرى دموعي.

الراهب: الدموع ليست دائمًا علامة محبة لله. أحيانًا، تكون علامة أن القلب لم يقبل مشيئة الله بعد.

يوسف: أتيت إلى هنا، لكن داخلي ما زال محطمًا. أنتم تعيشون على نظام وصلاة وسكون. أما أنا، فما زلت غارقًا في الاكتئاب.

الراهب (بحنو): القديس مار إسحق قال: لا تخف من جفاف الصلاة... فإن الصحراء تسبق النبع. وجفاف قلبك ليس نهاية، بل بداية.

لم يُجب يوسف. لكن الكلمات، وإن لم تُجِب عن كل أسئلته، فتحت بابًا كان مغلقًا. ربما لم تغيّر الصلاة ما حدث، لكنها بدأت تُغيّر من يرى ما حدث. شعر أن الصلاة التي ظنها ضاعت، لم تضِع. بل زرعت شيئًا آخر. شيئًا بدأ ينبت داخله الآن.

سكت...

لأن الكلام دخل إلى عمقه دون مقاومة. ولأنّه أدرك أن هذه الكلمات لم تكن توبيخًا، بل دعوة للمواجهة ومصالحة النفس. وانحدرت دمعة هادئة على خده. كانت أول دمعة لا من أجل نادين، بل من أجل نفسه. كان يوسف يبدو هادئًا. لكن في داخله، كان صراع خفي يدور بين قبول الله ورفض ما حدث. كأنه يصلّي بقلب مغلق، ويتحدث إلى الله دون أن يفتح له الباب.

من لا يعرف الانكسار

لم يجب يوسف، لكنه شعر أن كلمات الراهب هذه المرة لم تصطدم بحائط داخله كما في السابق. بل لامست شيئًا خفيًا في قلبه، ربما ما تبقّى منه.

يوسف (بصوت خافت منكسر، وعيناه تدمع): لكنني سقطت، يا أبونا. أشعر أنني لا أصلح لشيء. كأنني محطَّم تمامًا.

الراهب (بهدوء): والمسيح هو إله الساقطين، لا إله المنتصرين فقط.

سكت يوسف، وترك دموعه تنحدر دون أن يمسحها.

في تلك اللحظة لم تكن لديه كلمات، لكن الله كان قد بدأ يشتغل في أعماقه. في صمت اللحظة، نظر الراهب حوله، كأنه يفتّش عن صورة توضّح ما يريد أن يقوله. فجأة وقعت عينه على شجرة زيتون قديمة، قريبة منهما، جذعها مائل لكنه ثابت، حيّ. فأشار إليها وقال:

الراهب: هل ترى شجرة الزيتون تلك؟

يوسف (ينظر إليها دون فهم كامل): أراها... تبدو قديمة.

الراهب: هذه الشجرة تعرضت للانكسار يومًا ما. هبت عليها رياح شديدة، وتكسّر جذعها. لكنه لم يمت، بل خرج منها بعدها زيتون أجمل. لهذا ترى جذعها مائلًا لكنه لا يزال يحمل الحياة.

الراهب (يتابع): القديس مار إسحق يقول: من لم يُكسر قلبه، لن تنبعث منه رائحة الحياة. الذي لا يعرف الانكسار، لا يعرف النُضج. تأمل يوسف الشجرة جيدًا. لم تكن مستقيمة، لكنها كانت حيّة. ثم قال بصوت أقرب للهمس:

يوسف: ربما من ينكسر... لا يعود كما كان.

الراهب: صحيح. لكنه قد يعود أفضل. الانكسار ليس نقصًا، بل يمكن أن يكون نعمة. هذه الشجرة انكسرت، لكنها لم تمت، وها هي واقفة أمامك، مثمرة.

يوسف: يعني الانكسار ليس هو النهاية؟

الراهب: بالعكس، أحيانًا الانكسار يكون هو البداية. ما لا ينكسر يظل يابسًا. لكن ما ينكسر بطريقة صحيحة يخرج منه ثمر طيب.

يوسف: وكيف يكون الثمر؟

الراهب: القلب الذي مرّ بالوجع الحقيقي. يصبح أحنّ، أرقّ، أكثر تواضعًا. ينبت فيه التواضع، والرحمة، والحنان. كما أثمرت تلك الشجرة زيتونًا طيبًا، لأن جذورها كانت ثابتة.

الراهب (يتأمل): في الحياة، من ينكسر، قد يعود أنضج وأنقى من الذي لم يتعرض لرياح أبدًا. الانكسار ليس ضعفًا يا يوسف. بل بداية طريق جديد. حين تشعر أنك محطم ربما كان الله يصنع منك إنسانًا جديدًا.

سكت يوسف لحظة طويلة، ثم قال بصوت منخفض: أنا مستعد أن أنكسر لو كان هذا ما سيعيدني إلى الله. لكن الألم أحيانًا لا يجعلنا نُثمر.

الراهب: لكنه يجعل ما نُثمره حقيقيًا. مار إسحق يقول: من لا يعرف الانكسار، لن يعرف العزاء.

وقف يوسف مكانه، يتأمل الشجرة لم يتحرك. كأنها كانت مرآة. وكأن الانكسار الذي ظنه موتًا، قد يكون بداية لم يكن يتوقعها. وبعد لحظة، تحرّك يوسف وحده. لكن الشجرة لم تغادر ذهنه طوال اليوم.

قال في نفسه: أنا مثلها مكسور، لكن لا زالت فيّ حياة. وربما، يومًا ما أُثمر.

جلسة في الخلوة:

في الليلة التالية، كانت السماء المعلّقة فوق الدير أشبه بمرآة مفتوحة على أسرار القلب. السكون يلفّ المكان، كأن الكون بأسره يهيّئ يوسف للبوح بما لم يعرف له اسماً بعد. جلس على مقعدٍ حجري عند طرف الحديقة، ينظر في الفراغ.

كان داخله صراخ لا يُسمع وجعٌ لا اسم له، لكنه ينهش أعماقه في صمت. أنفاسه بطيئة، ثقيلة. وكل شيء حوله بدا وكأنه ينتظر اعترافًا لم يُقال بعد. مرّ الراهب بهدوئه المعروف، وكأن خطواته تعرف الطريق إلى القلب الحزين. توقّف إلى جواره، وجلس دون استئذان، ثم سأله: كيف حالك الليلة يا يوسف؟

يوسف (بصوت منكسر): نشكر الله، يا أبونا. لكن الحزن ما زال داخلي. وأنا لا أفهمه بعد. هل هو حزن روحي؟ أم هو فقط ألم فقدان زوجتى؟

الراهب: الحزن يا يوسف ليس واحدًا. هناك حزن يُذيب القلب أمام الله، وحزن يُغلق القلب على ذاته. القديس مار إسحق قال: الحزن بحسب الله، يلين القلب، ويجعل النفس تصرخ نحو العلاء بلا كبرياء؛ أما الحزن الباطل، فهو ضجيج النفس العمياء، التي تبكي ذاتها لأنها لم تنَل ما اشتهت.
يوسف (بتنهيدة): وكيف أُميّز بينهما؟

قلبي موجوع، لكن كل شيء مشوّش بداخلي...

الراهب (بهدوء): الحزن الإلهي، يجعل روحك تركع حتى دون أن تعرف ماذا تطلب. لكنه لا يطفئك، بل يقودك نحو نور. أما الحزن الذي فيك فهو احتجاج. أنت تحزن لأنك فقدت ما أردته، لا لأنك ابتعدت عن الله.

يوسف (بصوت متردّد): يعني حزني أناني؟

الراهب: ليس بالضرورة. لكن تأمّل هل بكى قلبك لأنه خسر نادين فقط، أم لأنه خسر الله في غمرة التعلّق بها؟

يوسف صمت. هذه المرة لم يكن الألم فقط في قلبه، بل في وعيه كأن الحزن بدأ يكشف وجهًا آخر له.

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ يوسف على فكرةٍ نضجت من منبع الألم: الانكسار لا يُثمر إلا إن تبعه تجرد. فليس كل من بكى تغيّر، وليس كل من تألّم تحرّر. الدموع بذور، لكنها لا تنبت في أرض التملّك، بل في أرض التخلّي.

التجرد في الحياة:

لم يكن يوسف قد تعافى بعد، لكن شيئًا ما في داخله بدأ يهدأ.

ليالٍ طويلة قضاها في بيت الخلوة، يتردد بين الكنيسة والحجرة والطعام البسيط، لم تشفِ كل انكساراته، لكنها فتحت عينيه على حياةٍ جديدة، لم يكن يعرف عنها شيئًا.

حياة لا تُقاس بما تمتلك، بل بما يمكنك أن تتخلّى عنه دون أن تنهار. كان بداخله صراع لم يُحسم بعد:

هل يمكن للإنسان أن يعيش بلا شيء ويظل حيًّا؟

هل التجرّد شفاء، أم هروب؟

وهل كان متمسكًا بنادين حقًا... أم بعجزه عن مواجهة فكرة الفقد؟

جلس يوسف على المقعد الخشبي الطويل في قاعة الطعام. أمامَه طبق فولٍ بسيط، ورغيف من الخبز الأسمر. تناول طعامه في صمت، لكن قلبه لم يكن صامتًا. شعر براحةٍ غريبة، كأنّ البساطة تخفف من ثقل ما بداخله.

بعد الطعام، خرج إلى حديقة الدير، وفي الطريق لمح اثنين من الرهبان يخرجان من الكنيسة، يرتديان جلابيب سوداء متآكلة، قلنسوة وصليب جلدي قديم، أقدامهما فيها أحذيةٍ بالية، لا تكاد تحمي من الحصى. لكن وجهيهما هادئان، لا ينظران حولهما، لا يملكان شيئًا، ولا يريدان شيئًا. وقف يوسف يتأملهما، ثم تابع طريقه حتى رأى راهب الخلوة يفلح الحديقة. اقترب منه، وسأله دون تردد: يا أبونا، لماذا يلبس الرهبان بهذه البساطة الشديدة؟

الراهب (بابتسامة عميقة)**:** لأنهم لا يحتاجون أكثر من ذلك. هذا الجلباب يكفي ليستر الجسد، أما الروح فقد كسَتها نعمة الله.

القديس مار إسحق كتب لنا: من تعرّى من الدنيا، كساه الله بنوره.

يوسف: لكنّي لاحظت أنهم راضون، رغم أن ليس عندهم شيء**!**

الراهب: الرضا لا يأتي مما تملك، بل من تحرّرك مما يملكك.

يوسف (متأملًا): هل هذا هو التجرد؟

الراهب (ناظرًا إليه بهدوء): التجرّد يا يوسف، ليس في أن تترك المال، بل أن يتركك القلب الذي يتعلّق به.القديس مار إسحق يقول: من ترك العالم بجسده، ولم يتركه بقلبه، فهو لم يتركه بعد.

سكت يوسف ينظر إلى الأرض، يفكر.

فأكمل الراهب: الرهبان الذين رأيتهم، يا بني، لم يعودوا يملكون شيئًا. لكن الأهم: لا شيء يملكهم بعد الآن.

شعر يوسف بشيء داخله يلين. لم يكن يعلم ما هو. لكنه لأول مرة، لم يرَ الفقر كعجز، بل كحُرية.

يوسف (بصوت هادئ): يعني من لا يملك شيئًا يرتاح؟

الراهب: ليس تمامًا. الذي لا شيء يملكه هو الذي يرتاح. القديس أوغسطينوس قال: وقفت على قمة العالم، حينما لم أعد أخاف شيئًا، ولا أشتهي شيئًا.

التجرد ليس أن تترك الدنيا، بل أن تترك خوفك منها.

يوسف: يعني أن أترك تعلّقي بالأشياء، لا الأشياء نفسها؟

الراهب (بهدوء): تمامًا. التجرد ليس نزع الأشياء، بل نزع التعلّق. نزع الرغبة في التملّك. ونزع القلق مما لا نملك.

شعر يوسف بوخزٍ في قلبه. كانت بساطتهم تكشف له سرًا لم يكن قد رآه من قبل. سعادة تُولد لا من الوفرة، بل من التحرّر. لم يُجب يوسف، لكن الكلمات حفرت نفسها داخله، كأنها نقشت فيه، لا قيلت له. وفي تلك اللحظة، فهم شيئًا جديدًا: الناس لا تحتاج كثيرًا لتفرح، أحيانًا يكفيها قلب بسيط.

الصلاة الصادقة:

منذ أن خرج يوسف من لقائه مع الراهب، شعر بشيء لم يألفه من قبل. لم يكن فرحًا، ولا راحةً كاملة، بل كان سكونًا...

سكونًا يشبه الصمت الذي يسبق لحظة الفهم، أو الهدوء الذي يلي العاصفة. لكنّه لم يكن سكون المكان، بل سكون القلب. كأن شيئًا في داخله توقف عن الركض، عن القلق، عن المطاردة.

طوال حياته، سعى ليطمئن عبر الامتلاك، لكنه في بيت الخلوة، بدأ يدرك أن السلام لا يولد دائمًا من التملك، بل يبدأ أحيانًا حين يتخلّى الإنسان عمّا يثقله.

عاد يوسف إلى غرفته، والهدوء يحيط به من كل جانب. لكن الأعمق من ذلك، أن قلبه هو الآخرقد هدأ. لأول مرة شعر أنه يسمع نفسه بصدق، دون ضجيج الأفكار، أو قلق نظرة الناس، أو محاولات إخفاء الضعف.

نهض من على سريره، واقترب من الأيقونة الصغيرة للسيدة العذراء، رفع عينيه نحو السماء، ثم سجد على الأرض وبصوت خافت نابع من عمق الانكسار، بدأ يصلّي: يا رب، لقد أخطأت ...

كنت أظن أنك ستفعل ما يريحني لأنني أحبك، لكنني لم أكن أفهم ماذا يعني أن أحبك لأجلك، لا لأجل عطاياك.

نادين كانت هديّة منك، لكنني تعلّقت بها أكثر مما تعلّقت بك. كنت أصلّي كي تُشفى، ولم أكن أصلّي لك، بل لأجل ما أردت أنا.

لم آتِ إلى هنا كي أستريح، ولا لأبدو صالحًا في عيني نفسي.

أتيت لأنني ضائع. أرجعني إليك. حتى وأنا ضعيف، حتى وأنا فارغ... أرجعني فأنا لك.

في تلك اللحظة، شعر يوسف بسلام داخلى...

لم يسمع صوتًا من السماء، لكن قلبه هدأ، كأن الله قد أجابه، لا بكلمة، بل بعناق داخلي يفيض طمأنينة. لقد صلّى، وبلغ صوته السماء، لا لأنه قوي، بل لأنه صادق ومنكسر. كما قال القديس مار إسحق: حين يُصلّي الإنسان من الكسر، يسمعه الله، ولو لم يُكمل جملته. فالله لا يُصغي للعبارات، بل للقلوب المنكسرة.

في تلك الليلة، أدرك يوسف أن العلاقة مع الله لا تُبنى على نجاحه، ولا على كثرة كلماته، بل على صدقه، واتضاعه، ورغبته أن يُشفى من الداخل.

وبين الكسر والمعرفة... بدأ قلبه يطهُر.

البعثة الإلهية:

بعد ليالٍ من السكون، والصلاة، والانكسار، بدأ شيء في قلب يوسف يهدأ...

لكنّه لم يكن هدوءَ الختام، بل سكونَ ما قبل الولادة. كمن لفظته العاصفة إلى شاطئ جديد، لا يعرف وجهته، لكنّه يشعر أن خطواته القادمة ستُكتب هناك.

لم يعد مشغولًا بالنجاة، بل بدأ يسأل نفسه:

لماذا نجوت؟ وماذا يريد الله مني الآن؟

في صباحٍ بارد، كانت الشمس ترسل خيوطها الأولى على حديقة الدير، والأرض لا تزال تحمل رطوبة الليل. وقف يوسف يتأمل مشهد الشروق، وعيناه غارقتان في الأفق، وفي قلبه سؤالٌ لا صوت له، لكنه يصرخ في الداخل.

اقترب راهب الخلوة بهدوء، حياه، وجلس بجواره دون كلام. ثم قال بعد صمت قصير:

الراهب: تبدو أكثر هدوءًا اليوم.

يوسف: أشعر أن شيئًا داخلي بدأ يهدأ. لكنني لا أعلم من أين أبدأ.

الراهب: لا تبدأ من عندك. بل سلّم الطريق لصاحبه، وسيرشدك.

يوسف: لكن، لماذا ما زلت أشعر بالألم؟

ظننتُ أن الشفاء يعني زوال الوجع.

الراهب (مبتسمًا بحنان): قال القديس مار إسحق: ما من ألم يسمح به الله، إلا وفيه دواء خفي. وما من دمعة يُجيزها، إلا وكانت تمهيدًا لبعثة.

يوسف (بتأمل ودهشة): بعثة؟

يعني الله يسمح بانكساري لكي يرسلني؟

الراهب: نعم. الله لا يستخدمنا ونحن مملوؤون بذواتنا. أحيانًا، لا يستطيع أن يسكب نعمته، إلا في أوانٍ مكسورة. حين يكسر شيئًا فينا، يكون يُهيئنا لنتحنن على من كُسِروا مثلنا. الخدمة ليست كلامًا من أعلى، بل يدٌ منكسرة تمسح دمعة مَن سقط، لأنها سقطت قبله.

يوسف (بهمس): وهل يُمكن أن أكون سبب رجوع لأحد، وأنا بالكاد عدت؟

الراهب: القديس مار إسحق يقول: الله لا يُرسل الأقوياء، بل الذين ذاقوا الضعف، فانكسروا. لأن المنكسر حين يُرسَل، لا يتكبّر، بل يخدم من تحت، فيُشبه المسيح.

سكت يوسف، وكأن كلام الراهب بدأ يوقظ شيئًا نائمًا فيه. ثم قال بعد لحظة صمت: كنتُ أخدم قبل ارتباطي بنادين، لكن بعدها فقدت كل رغبة في الرجوع.

لم أعد أرى لنفسي مكانًا في الخدمة...

الراهب (بصوت ثابت): ربما اليوم فقط صرت صالحًا للخدمة. ليس لأنك أصبحت قويًا، بل لأنك لم تعُد معتمدًا على نفسك.

يوسف: لكنني لا أشعر أنني جاهز.

الراهب: لا أحد يبدأ جاهزًا. الله لا ينتظر الاستعداد الكامل، بل الطاعة الكاملة. حين تخطو أولى الخطوات، تسبقك النعمة. خدمتك الآتية لن تخرج من قوةٍ بشرية، بل من جُرحٍ نقي. الخدمة ليست منبرًا، بل رفقةُ قلبٍ يعرف الوجع. هي أن تجلس مع مَن سقط، وتقول له: وقعتُ أنا أيضًا، لكن النعمة أقامتني. ثم نظر إليه بعينين مضيئتين وقال: القديس مار إسحق السرياني قال أيضًا: الخادم الحقيقي هو من خدم بدموعه قبل كلماته، ومن عرف الله في العتمة، قبل أن يُبشّر به في النور. ومن

تجرّد عن العالم، صار وحده أهلًا أن يخدم العالم. ومن سكن الألم قلبه وطهّره، هو من يُرسله الله ليحمل وجع الناس، لا بخُطب، بل بصلاةٍ تخرج من أعماق جرحٍ مُطهَّر.

شعر يوسف وكأنّ الكلمات لم تُقال له فقط، بل خرجت منه أيضًا. كأنّ أبوابًا قديمة كانت مغلقة قد انفتحت فجأة. لم يكن رجوعًا إلى ما كان، بل ولادةً لحضورٍ جديد. خدمة لا تعتمد على الكلمة، بل على صدق الحياة. لا تعلِّم، بل تشارك. لا تعلو، بل تواسي. كان هذا بداية البعثة.

مشهد الوداع الأخير:

لم يكن يوسف يعلم أن الرحلة الأقصر في عمره، ستكون الأعمق أثرًا في قلبه. جاء إلى هذا المكان هاربًا من الألم، فوجد فيه مدرسةً للألم. هرب من العالم، فعاد إليه محمولًا على صمتٍ جديد...

صمتٍ لا يدل على الهروب، بل على الفهم. صمتٍ فيه معرفة، وسلام، وامتلاء.

في صباحٍ بارد، كانت الشمس لا تزال ترسل خيوطها الأولى همسًا، وقف يوسف يستعد للرحيل. لكن قلبه كان يعلم أنه لا يعود كما أتى.

كان يرتدي معطفًا خفيفًا، وبجواره حقيبة صغيرة. عيناه متجهتان نحو كنيسة الدير، يغلفه الصمت ذاته الذي تعلّمه هنا. لكنّه لم يكن صمت العاجز، بل صمت المملوء. اقترب راهب الخلوة يسير على مهل، حتى وقف أمام يوسف، ونظر إليه طويلًا. نظرةُ وداعٍ لم تحمل كلمات، لكنها احتوت كلّ الكلمات.

الراهب: كل نهاية صادقة، هي في حقيقتها بداية جديدة. خذ هذه، يا يوسف صورة للقديس مار إسحق، احتفظ بها، لتتذكر أن أمامك طريقًا لم يكتمل بعد. تأمل يوسف الصورة الخشبية، وكان منقوشًا عليها: من عرف نفسه، حمل الله في قلبه، ومن حمل الله، صار هو الصمت.

يوسف (بصوتٍ متأثر): صار هو الصمت، ماذا تعني هذه العبارة يا أبي؟

الراهب (بهدوء): تعني أنك حين تنزل إلى الناس وتتكلم، لا يسمعونك أنت، بل يسمعون ما هو أعمق منك. الصمت الذي سكنك هنا سيصير صوتك بينهم.

ساد بينهما صمت طويل. ثم حمل يوسف الحقيبة، تنفّس بعمق، وقال وعيناه دامعتان: لن أنساك أبدًا، ليس فقط لأنك مرشدي الروحي، أو لأنك علّمتني الكثير. بل لأنك، يا أبي، أعَدتني إلى نفسي من جديد.

الراهب (مبتسمًا في هدوء): عدْ، لكن لا تعد كما كنت. خذ وجعك معك، لا تُخفِه، بل احمله كنورٍ خافت يشبهك. كن إنسانًا يخدم لا من المعرفة، بل من التجرّد. لا تُعلّم الناس بكلامك، بل قف إلى جوارهم بإنسانيتك، كما فعل المسيح حين وقف بجانب كل مَن سقط. ثم أضاف بصوتٍ أهدأ، كأنّه يسلّمه الوصية الأخيرة: لا تأخذ صورة القديس مار إسحق فقط بل خذ تعاليمه أيضًا، واحملها معك إلى العالم.

خرج يوسف من الدير، لكنّ الدير لم يخرج منه. كان في قلبه صمت، وفي روحه صلاة، وفي عينيه بداية جديدة. لم يعد الرجل الذي دخل هذا المكان. بل خرج منه شخصًا آخر: أكثر هدوءًا، أعمق إيمانًا، أقل كلامًا، وأكثر نورًا. لم يحمل معه إجابات، بل حمل أسئلةً أنضج، وسكونًا أنقى، وقلبًا لم يَعُد يخشى الكسر. لأنه اختبر في الكسر، حضور الله. كان يعلم أن طريقه القادم لن يكون سهلاً، لكنه للمرة الأولى، لم يكن خائفًا. فلأول مرة، لم يخرج يوسف هاربًا من ألمه، بل خرج شاهدًا على النعمة التي انتشلته. لم يَعُد يخشى أن يكون بين الناس، بل صار يحمل في قلبه نورًا هادئًا، ينير الظلام دون أن يشد الأنظار، كشمعة في ركنٍ بعيد، لا تتباهى بضوئها، لكنها تمنع الليل من الاكتمال.

" الفصل الرابع "

حين يثمر الانكسار

لأن الله لا يزرع نعمته إلا في أرضٍ انكسرت، فصارت مستعدة أن تحتضن الحياة.

فالقلوب التي تشقّقها الألم، هي وحدها التي تصير صالحة للإنبات

صلاة يوسف في الكنيسة:

دخل يوسف الكنيسة بهدوءٍ مهيب، خطواته بطيئة، لكن متزنة، كأن كل خطوة تحمل ثقل سنين من التيه. كان صباح أحد، والكنيسة مزدحمة بالمصلين. البخور يتصاعد كصلاة مرئية، يملأ الأنفاس، يتخلل الضوء المتسلل من النوافذ، ويصعد كصلواتٍ نحو السماء. الألحان تهمس في الأركان، وأصوات الشمامسة تعانق روحه المتعبة...

وقف عند آخر صف، يشتاق أن يقترب، لكن الزحام منعه، فاختار أن يصلي من حيث هو، قلبًا لقلب.

أغمض عينيه، وسكن. لم يتكلم بصوت، لكن داخله كان يصرخ:

يا رب، سامحني على كل ما فعلته...

على كل مرة أغلقت فيها قلبي أمامك، على كل فكر ظالم ظننته بك، على كل مرة حطّمت صورتك جوايا.

صمت لحظة، ثم تسللت إلى ذهنه كلمات داود النبي:

قلبًا نقيًا اخلق فيَّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدد في داخلي. لا تطرحني من قدام وجهك، وروحك القدوس لا تنزعه مني. (مزمور٥١: ١٠ – ١١).

تنفّس ببطء، وكأن صدره بدأ يتحرر.

يا رب، لم أعد أرغب في شيء من هذه الحياة... فقط كن معي. أُريد أن تحيا نفسي لك، وأموت في حضنك.

ومرّ في قلبه قول الرسول بولس: إن عشنا فللرب نعيش، وإن متنا فللرب نموت. فإن عشنا وإن متنا فللرب نحن.(رومية ١٤ : ٨).

ترددت في قلبه الآية التي طالما سمعها، لكن لأول مرة أحس بها: من سيفصلنا عن محبة المسيح؟ أشدة؟ أم ضيق؟ أم اضطهاد؟ أم جوع؟ أم عري؟ أم خطر؟ أم سيف؟ (رومية ٨ : ٣٥).

سكنت الدموع في عينيه دون أن تنزل.

تراءف عليّ، يا رب، واسمح لي أبدأ من جديد. اختر لعبدك الطريق الذي يرضيك. آمين.

وفي تلك اللحظة... لم يشعر بشيء تغير حوله، لكن شيئًا كبيرًا بدأ يتغيّر فيه.

لقاءه مع أبونا يعقوب:

خرج أبونا يعقوب من الهيكل بعد الصلاة. هو الكاهن الأكبر في الكنيسة، لمح يوسف بعد القداس، فتوجه نحوه بهدوء، واحتضنه بقوة كأب وجد ابنه العائد بعد غياب طويل.

جلس يوسف أمام أبونا يعقوب، كما كان يفعل قديمًا. لكن هذه المرة... كان قلبه مكشوفًا أكثر من أي وقت مضى.

القمص يعقوب: حمد الله على السلامة يا يوسف يا حبيبي

يوسف: الله يسلمك يا أبونا

أبونا: رجعت إمتى؟

يوسف: رجعت أمس

أبونا: هل أنت بخير؟

يوسف: نعم... تعرف يا أبونا، فترة الخلوة كشفتني قدام نفسي. كنت أصلّي لله ليس لأني أحبه، بل لأني كنت أحتاجه. كنت أريده أن يشفي زوجتي نادين. طول حياتي، كنت أتعامل مع الله على أنه يحقق لي أمنياتي.

أبونا يعقوب: للأسف يا يوسف، أغلب الناس يحبّون الله كمصدر للمعونة. يحبّونه لأنه إله المستحيلات. لكن هذا لا يكفي. فالمحبة الحقيقية تبدأ عندما تحب الله، حتى إن لم يُعطِك شيئًا.

يوسف: أنا حقًا أريد أن أرجع لمحبة الله كما كنت في البداية.

أبونا: إن قلت له هذا من قلبك، فهو سامعك. الرجوع لا يحتاج إلى كلمات، بل إلى صدق وفعل.

القديس مار إسحق قال: التوبة لا تبدأ من الشفاه، بل من النفس التي بكت على حالها، فصمتت. وحين تصمت النفس، تسمع نداء الله من الداخل: ارجع... فإني لم أتركك قط.

وضع يوسف رأسه بين يديه، وترك دمعة تنزل، لكنها لم تكن دمعة وجع... بل أول دمعة رجوع.

كما قال مار إسحق: من لم يكتشف عمق ضعفه، لا يستطيع أن يتذوّق عذوبة الله.

أبونا: الله، كما قال مار إسحق، لا يُخفي نفسه عن الإنسان. لكن الإنسان هو من يغلق باب قلبه من الداخل. الله لا يطرق الباب بعنف، بل يقف في هدوء وينتظر، ولو لسنين ...

هأنذا واقف على الباب وأقرع، إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعشّى معه وهو معي. (رؤيا٣ : ٢٠).

يوسف: كنت أظن أن نادين كانت بركة في حياتي ... لكن يبدو أن وجودها جعلني أبتعد عن الله.

أبونا: حين تحجب العطية وجه الله عنك، يسمح أحيانًا أن تُنتَزَع، ليس لأنه قاسٍ، بل لأنه يحبّك أكثر من عطاياه. من يحب الله، يرى كل عطية وسيلة للوصول إليه. أما من يتعلق بالعطية، فيرى الله من خلالها، وقد يستبدله بها دون أن يشعر.

يوسف (بألم): يعني أنا استبدلت الله بنادين؟

أبونا: أنت أحببت نادين بصدق، لكن ليس بالكمال. ولا يوجد حب كامل، إلا إذا كان الله مركزه. قال مار إسحق: من أحبَّ الله بصدق، أدرك أن كل ما غيره لا يدوم. فالزهد ليس أن تترك الدنيا، بل أن لا يملكك شيء منها.

يوسف: لكن كيف أتحرر؟ لا أعرف كيف أحب الله بالقوة نفسها التي كنت أحب بها نادين.

أبونا: المحبة ليست مهارة يا يوسف... بل عطية. لكن عليك أن تبدأ. نقِّ قلبك، وطالما تطرد شيئًا من داخلك، تجد الله يأخذ مكانه.

يوسف (بهدوء): يعني كنت مليئًا بالعالم؟

أبونا: نعم، سابقًا... أما الآن، فأنت تبدأ في أن تكون إنسان الله.

يوسف: أبونا... من فضلك، أريد أن أعود للخدمة.

أبونا يعقوب: هل فكّرت جيدًا؟ أنت تعرف أن خدمة الشباب ليست سهلة.

يوسف: أنا أعود ليس لأن حياتي فارغة، ولا لأملأ وقتي. أعود لأن قلبي مشتاق لله... ومشتاق لأولاده.

ولا يصح أن أحتفظ بهذه الحياة الجديدة لنفسي فقط.

أبونا: اسمع ما قاله مار إسحق: ليس أحد يقدر أن يعلّم بسلطان، إلا من تعلّم بالوجع. ومن خدم من قلب مكسور، هو من يستخدمه الله ليلمَس القلوب المكسورة.

يوسف: أنا مستعد... لا لأني نافع، بل لأني مكسور. وأؤمن أن الله سيعمل بشكل عظيم بالشيء المكسور... رغم أني غير مستحق.

أبونا (بصوتٍ ثابت ونبرة أب): الخدمة ليست استحقاقًا، بل عطية. إذا أعاد الله الشوق إلى قلبك، فهو من يبدأ معك. الله لا يطلب فمًا فصيحًا... بل قلبًا نقيًا. كما قال مار إسحق: الناس لا ينتفعون بمنطقك، بل بما تشعله فيهم من حرارة القلب.

يوسف: عندك حق، يا أبونا.

أبونا: إذًا نبدأ بهدوء... من القلوب التائهة، التي فقدت صوتها.

مار إسحق يقول: إن جلست مع خاطئ يئن، فابكِ معه، لا تعظه. لأن العين التي تبكي معه، أقوى من ألف كلمة توبخه.

يوسف: ربنا يعيننا ويقوّينا، يا أبونا.

أبونا: اسمح لي بنصيحة...

يوسف: تفضل، يا قدس أبونا.

أبونا: ابدأ مع الشباب بروح الصبر. استمع، راقب، وسِر بجانبهم. أحببهم بصدق.

يوسف: أنا كنت أظن أن المحبة مجرد عِظة...

لكن الآن أشعر أنها روح، وحياة، وفعل.

أبونا (يهز رأسه مبتسمًا): مار إسحق قال: من لا يحب، لا يعرف الله.

ثم قام، وربت على كتفه: ابدأ من الأسبوع المقبل. فالقلب الجاهز، أهم من الخطة الجاهزة.

يوسف: صلواتك تسندني يا أبي.

أبونا: ربنا معك... وصلوات الست العذراء تسندك.

ثم رفع عينيه نحو الهيكل، وهمس: يا رب، لتكن هذه الخدمة من يدك، لا من يدنا.

ويا مار إسحق... علّم يوسف أن يعلِّم، كما علَّمتَه أن يتعلّم. آمين.

بداية الاجتماع

كان مساء يوم الخميس، دخل يوسف إلى قاعة الشباب في الطابق الثاني مبكرًا. فتح الإضاءة، ورتّب الكراسي بنفسه. وقف لحظة يتأمل المكان في صمت، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة مليئة بالحنين. على الحائط كانت هناك لافتة كُتب عليها: كلّمني عن الله بصدق.

دخل القاعة الأب يعقوب يرافقه اثنان من خُدّام الكنيسة، ونظر إلى يوسف بمحبة وقال:

الأب يعقوب: كيف حالك يا يوسف؟ هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟

يوسف: الحمد لله يا أبونا، نحن جاهزون. ثم أضاف يوسف وهو ينظر نحو الكراسي المرتّبة: لا أنوي أن أُلقي عليهم محاضرة، أُريد فقط أن أسمعهم، وأتكلم قليلًا.

ابتسم أبونا وقال: بداية موفقة يا يوسف... الشباب لا يحتاجون كلمات كثيرة، بل قلوبًا تسمعهم وتحتويهم.

بدأ الشباب يدخلون القاعة واحدًا تلو الآخر. لم يكونوا كثيرين، نحو اثني عشر شابًا وشابة. بعضهم كانت وجوههم مألوفة، تُذكّره بالماضي، والبعض الآخر وجوه جديدة، امتلأت أعينهم بتساؤلات، أو لامبالاة، أو إرهاق داخلي ظاهر.

تقدّم يوسف بخطوات هادئة وقال: أهلًا بكم. أنا يوسف، كنت أخدم هنا من قبل، والآن أعود لأخدم من جديد، لكن هذه المرّة... أريد أن نبدأ بداية مختلفة. من يُحب أن يتكلم، فليتكلم. ومن يريد أن يسأل، فليسأل. ومن يُفضّل الجلوس والاستماع فقط، فمرحبًا به أيضًا. أنا لم آتِ لأُلقي محاضرة، بل لأكون معكم، وسطكم.

نحن جميعًا هنا لنسمع صوت الله... وسط القلق، وسط الغضب، وسط السكوت.

ساد القاعة صمتٌ عميق... لم يكن صمت ملل، بل صمت احترام، صمت انتظار وسَماع.

قال يوسف بعد لحظات من الصمت: اليوم، لن نتحدّث عن موضوع، بل عن "حالة. حالة تمرّ على كثير منّا:

حين لا تقدر أن تُصلي، ولا تعرف ماذا تقول، حين لا تفهم نفسك، ولا تجد طاقة لأي شيء، حين تشعر بالإحباط، أو الانكسار، أو حتى الاكتئاب. هل مرّ أحدكم بهذه الحالة من قبل؟

رفع شاب في نهاية القاعة يده وتحدث بصوتٍ خافت: حين ينكسر الإنسان يشعر أنه ضائع تائه... ليس مكسورًا فقط، بل وكأن هذه هي النهاية.

ابتسم يوسف وقال بنبرة هادئة: أعلم هذا الشعور جيدًا... لكن اسمح لي أن أقول لك: الانكسار في يد الله ليس كالكسر في يد البشر. البشر كثيرًا ما يكسرون ثم يتركونك، لكن الله إن سمح بالكسر، فلكي يُشكّلك من جديد هو الفخاري الأعظم، ونحن كالخزف بين يديه (إرميا ١٨ :٦).

فالوقوع في يد الرب، خير من الوقوع في يد إنسان.(٢صموئيل ٢٤: ١٤).

ثم نظر يوسف إلى الجميع وسألهم: ما أكثر شيء أصبح ثقيلًا على قلوبكم؟ سواء داخل الكنيسة أو خارجها؟

أجاب شاب آخر، اسمه أمير: أشعر أن الدراسة باتت عبئًا ثقيلاً، وأحيانًا أشعر بالضعف، سواء في قدراتي أو في حياتي الروحية، حتى إنّي أشك أنني سأتحسن... أشعر أنه لا فائدة.

ردّ يوسف ببساطة، وبصوتٍ صادق: كلّنا مررنا بهذا الإحساس. لكن هل تعلم؟

الله لا يبحث عن "الناجحين"، بل يسير مع "الضعفاء" حتى يقوّيهم. هو من قال: تكفيك نعمتي، لأن قوتي في الضعف تُكمل.(٢ كورنثوس ١٢ : ٩). وكتب بولس الرسول أيضًا: اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء... لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه.(١كورنثوس١ : ٢٧- ٢٩).

في تلك اللحظة، لم يكن يوسف مجرّد متحدّث أو معلّم، بل بدا كمن مرّ بالكسر واختبر الرجاء. مرّت ساعة، وانتهى الاجتماع بلا تصفيق، ولا طاقة صاخبة، لكنّ أحدًا لم يُرد أن يغادر سريعًا... كأنّ شيئًا صادقًا لامس القلوب. وقبل أن ينصرفوا، قال لهم يوسف بابتسامة هادئة: أنا لا أريد أن أُقيم اجتماعًا ناجحًا، أُريد أن نكون

إخوة حقيقيين. إذا كان لدى أحدكم مشكلة، أو أي أمر يريد أن يشاركني به... أنا هنا، وبنعمة الله سأكون معه.

يوسف مع مينا أحد مخدومين الشباب

بدأ الشباب بالخروج، لكن شابًا واحدًا ظل جالسًا في آخر القاعة. كان اسمه مينا. وجهه هادئ، لكن في عينيه حزنٌ عميق. لاحظه يوسف منذ بداية اللقاء، لكنه لم يُرِد أن يضغط عليه. اقترب منه وهو يجمع الكراسي، وقال بهدوء:

كيف حالك؟

مينا (بخجل): نشكر الله... هل يمكنني أن أسألك سؤالًا يا أستاذ يوسف ؟

يوسف (مبتسمًا): طبعًا، لكن أخبرني أولًا ما اسمك؟

مينا: اسمي مينا.

يوسف: اسم جميل يا مينا. ما هو سؤالك؟

مينا: لماذا يسمح الله بالأشياء السيئة؟ لماذا يرحل مَن نُحبهم؟ لماذا تُكسرنا الحياة بهذه القسوة؟

لم يُسرِع يوسف في الرد، بل تنهد، ونظر إلى الأرض، ثم قال: كنت مثلك تمامًا. كنت أطرح هذا السؤال مرارًا.

مينا: وهل وجدت إجابة؟

يوسف: ليس إجابةً كاملة، لكنني فهمت شيئًا... نحن نختار لأنفسنا دائمًا ما نظنه الأفضل، أما الله أحيانًا يختار لنا ما يبدو صعبًا أو مُرًّا، لكنه في الحقيقة، هو الذي ينجّينا.

مينا (بدهشة): لم أفهم.

يوسف: دعني أسألك... الأشخاص الذين رحلوا عن حياتك، هل كنت تحبهم كثيرًا؟

مينا: جدًا.

يوسف: هل أحببتهم أكثر من الله؟

سكت مينا قليلاً، ثم قال بتردد: ربما... نعم، كنت أحب الجلوس معهم، وعندما أذهب للصلاة، كنت أشعر بثقلٍ شديد.

يوسف: وأنا كنت كذلك. وعندما توفيت زوجتي، كنت أُصلّي وأطلب من الله أن يرفع عني الألم... لكنه لم يفعل. وبعد فترة، أدركت أن الألم ذاته هو ما أعادني إلى حضنه. شعرت كأن الله يقول لي: تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال، وأنا أريحكم.(متى ١١: ٢٨).

مينا: يعني ما أمرّ به الآن... قد يكون طريق عودتي إلى الله؟

يوسف: ليس قد يكون، بل هو كذلك. القديس مار إسحق قال: الله لا يجرح إلا ليُداوي، ولا يكسر إلا ليدخل نوره إلى الداخل.

مينا (الدمعة تنزل من عينه): أنا أحاول، لكن الأمر صعب. حاولت أن أعود للصلاة، لكن شعرت أنني أخدع نفسي، وأن صوتي لا يصل.

يوسف: هل تعلم ماذا قال مار إسحق أيضًا؟

إن كنتَ لا تزال في الحزن، فأنتَ في حضرة الله. فالله لا يسمع بالأصوات، بل بالحزن الصادق.

مينا: لكنني أتألم بشدة...

يوسف: الله يعزّيك، ويمنحك الصبر على فراقهم. لكن النعمة لا تُعطى إلا للقلوب المنكسرة التي تعترف بضعفها.

مينا: الجميع يقول لي: عليك أن تتجاوز هذه المحنة، وأن تواصل طريقك. ولا يقولون كيف أُرمّم روحي بعد أن انهدمت؟

يوسف: وأنا أيضًا أحاول، مثلُك تمامًا. جميعنا نكمل طريق الحياة... وصدقني، هذا الشعور المُرّ لن يدوم. أما نعمة الله، فهي دائمة، وهي التي تقوّيك، وتسند ضعفك. لكن لا تَسِر وحدك مجددًا، ابقَ دائمًا قريبًا من أب اعترافك.

دمعت عين مينا، فوقف على قدميه، فنظر إليه يوسف وقال بهدوء: للحديث بقية... سأنتظرك الأسبوع القادم، بإذن الله.

مينا: وسآتي، إن شاء الله

يوسف (بابتسامة): مكانك محفوظ... حتى إن تأخرت يا مينا

مينا: أنا ممتنٌّ لك كثيرًا، كنت متعبًا جدًا، وارتحت كثيرًا حين تحدثت معك

يوسف: ليعينك الله، وليُفرح قلبك... إلى اللقاء.

بعد أن غادر مينا، ظل يوسف واقفًا للحظة. نظر إلى الباب الذي خرج منه الشاب، كأنه يُرسل معه صلاة صامتة. تنهد بعمق، ثم بدأ يجمع بقايا الكراسي وحده. اقترب منه أمين الخدمة، الأستاذ مراد، وهو يربّت على كتفه بلطف.

يوسف مع أمين الخدمة استاذ مراد:

أمين الخدمة (مقتربًا بابتسامة أخوية): كيف حالك يا يوسف؟ وكيف تسير خدمة الشباب؟

يوسف: نشكر الله، كل شيء بخير يا أستاذ مراد

أمين الخدمة: ليبارك الرب خدمتك، ويجازيك عن تعب محبتك.

يوسف (بابتسامة هادئة): صلواتك يا أستاذ مراد

أمين الخدمة: لتكن صلوات السيدة العذراء معك دائمًا. أريد أن أقول لك شيئًا هامًّا يا يوسف.

يوسف: بكل ترحيب

أمين الخدمة: أنا لا أريدك أن تحزن بسبب من لا يفهمونك. أنت تزرع في أرضٍ صعبة... لم تعتد أن ترى المطر
يوسف (يتنهد قليلًا، ثم يقول بتأمل): يقول معلمنا بولس الرسول: فليس الغارس شيئًا، ولا الساقي، بل الله الذي يُنمي.(١كورنثوس ٣ : ٧).

نحن نبذل جهدنا، ونترك الثمر لعمل الله... فهو وحده القادر أن يتمجّد في الضعف.

أمين الخدمة: صدقني، الله سيعمل في الوقت المناسب. المطر سيأتي، والحصاد أيضًا. ربما نحن لن نراه، لكن هؤلاء الشباب هم من سيجنون ثماره.

يوسف يصمت لوهلة، ثم يبتسم ابتسامة متأملة، ونظره يتجه بعيدًا كأن شيئًا تحرك في داخله، ثم يقول (بصوت خافت يحمل رجاءً): إن كان الزرع قد غُرِس بالدموع... فلا بد أن يكون الحصاد بالفرح. فالَّذِينَ يَزْرَعُونَ بِالدُّمُوعِ يَحْصُدُونَ بِالابْتِهَاجِ.(مزمور ١٢٦ : ٥).

وأنا أؤمن بذلك يا أستاذ مراد...

سنزرع الآن، وإن لم نَرَ الحصاد، سنثق أنه سيأتي. لأن الله لا ينسى زرعًا سقيناه بدموع القلب.

مضي أمين الخدمة الأستاذ مراد، وبقى يوسف وحده للحظة، يلمّ الأوراق من على الطاولة، ثم شعر وكأن شيئًا في داخله يتكلم أخيرًا بصوت هادئ.

خاتمة:

من أحبّ أمًّا أو أبًا أو أي شيء أكثر منّي، فلا يستحقني.(متى١٠ : ٣٧)

هذه الآية لم تكن مجرد كلمات في الإنجيل، بل كانت درسًا حيًّا في حياتي.

لقد أحببت نادين أكثر من الله، فعشت مكسورًا، تائهًا، فاقدًا لكل شيء... حتى نفسي. دخلت الخلوة في الدير ميتًا... وخرجت منها حيًّا.

(يوسف يقف أمام النافذة، عينيه لا تريان الخارج، بل تتأملان شيئًا أعمق داخله)

لم أفهم كل شيء...

فما أعظم حكمتك يا رب عن الفحص، وطرقك عن الاستقصاء.(رومية ١١ : ٣٣).

لكنني أيضًا لم أعد أحتاج أن أفهم كل شيء، بل يكفيني أن أثق فيك وحدك.

أنني أدرك أن المرّ الذي تختاره لي يا الله، أفضل من الشهد الذي أختاره لنفسي.

يوسف يأخذ نفسًا عميقًا، كمن يودّع زمنًا قاسيًا، ويبدأ في تدوين شيء بدفتر صغير.

لم أعد أصرخ، لم أعد أطلب، ولم أعد أسأل كثيرًا...

لكنني بدأت أُصغي. ربما بدأت أُشفى. أصبحتُ الآن أرى.

(يوسف يضع القلم، ويبتسم ابتسامة هادئة مملوءة سلامًا): عندما عدتُ إلى حضن الله، كنت أعلم أنني على بداية الطريق الصحيح، حتى وإن لم يكن فيه هتافٌ أو تصفيق.

لكني أيقنت شيئًا لم أكن أفهمه من قبل: أن الله لا يسمع في الضجيج، بل يلمس في السكوت.

يوسف يتذكر وجه مينا للحظة، ويقول بهدوء: كلّنا نمرّ بالضيقات والتجارب، لأنه "بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت السموات ". (أعمال١٤ : ٢٢). كلّنا نسير في طريق الآلام، لكن ليس كل المتألمين يسيرون مع الله.اختر أن تبقى معه.

يوسف يتجه نحو باب القاعة، يطفئ الأنوار، لكن النور الداخلي في قلبه يبقى مضيئًا.

تُسمع كلماته الأخيرة كصدى داخلي: تحلَّ بالصلاة والصبر، لأن " الذي يصبر إلى المنتهى، فهذا يخلص". (متى٢٤: ١٣).